عودةٌ من هناك

ألم يحدث لواحدٍ منكم أو واحدةٍ منكن أن استيقظ في الصباح فنظر إلى وجهه فى المرآة فتساءل: ألم يأن الأوان أن أرى وجهًا غير هذا الوجه؟

ألم يحدث لواحدٍ أو واحدةٍ منكم أن استيقظ فيالصباح ونظر حوله ثم استعرض فى عقله للحظات ماعليه أن يقوم به الآن بعد أن ظفر بيوم جديد فى الحياة، ثم تسائل: إلى متى سيظل هذا التسلسل المملوالنمط المتكرر؟ إلى متى ستظل نفس هذه المشاكل، و نفس المعاناة، و نفس طريقة الحل، ونفس طرق الحماية، وحوائط الصد لتستمر الحياة. و يمر يوم آخر بدون أن يجد أصلًا إجابة عن سؤال: ولماذا يجب أن يمر يوم آخر؟

آسفة لهذه المقدمة، ولكن كان لابد منها فهذا ما شعرت به صباح ذلك اليوم، آخر أكتوبر عام ١٩٩٩ استيقظت لأنه لابد لى أن استيقظ ...فاليوم سأعود إلى القاهرة بعد عامين قضيتهما فى نيويورك ألقيت خلالهما محاضرات حول الأدب العربى المعاصر في الجامعة هناك ...

جهزت كل شيء ..أكدت مساعدتى على موعد الحجز على الطائرة ....رتبت الحقائب بعناية حتى لا أتحمل أى وزن زائد. وزعت الهدايا بالتساوي على الحقيبتين؛ حتى إذا فقدت واحدة تفى الأخرى بالغرض ...انتقيت الملابس التي سأسافر بها ...أفضل ما عندى، أفضل ما اشتريت خلال العامين الماضيين؛ لا بد أن يرانى زوجعند عودتى على أجمل صورة؛ فلابد أن أجعله يندم على العامين اللذين لم يرنى فيهما إلا ثلاث مرات!!!:مرة عندما حضر إلى هنا بعد ستة أشهر، ومرة عندما عدت فى أجازتي بعد عام، و مرة أخرى منذ أربعة أشهر عندما التقينا فى لندن – منتصف الطريق – بعد إلحاح منى وتصادف وجود مصلحة له في لندن!!

أعددت كل شئ، اتصلت بدكتور جيفرسون عميد الكلية، وشكرته على الفترة الرائعة التى قضيتها هنا. أعاد على مسامعي عرضه بتمديد فترة عملى، شكرته ووعدته أن أفكر فى الأمر بجدية ..

اتصلت بمحمود – زوجي– وأكدت على موعد الوصول ..لم تعجبنى نبرة صوته ...ليست نبرة زوج متلهف للقاء زوجته، وإنما هى أشبه بنبرة رجل اتصلت به زوجته تطلب منه شراء رغيفين من الخبز فى طريق عودته. !!

جاءت مساعدتي في الموعد، و أصرت أن توصلنى للمطار رغم الموعد المتأخر لإقلاع الطائرة. أصرت باربرا أنْ تبقى في المطار؛ حتى أنتهى من وزن الأمتعة وأحصل على بطاقة الصعود للطائرة...اتصلت بها بعد ذلك فانصرفت...علاقتى بها ليست علاقة أستاذة بتلميذة، وإنما علاقة صداقة قوية نمت وتطورت على مدى عامين. حكيت لها عن كل شىء وروت لى أدق تفاصيل حياتها...

علمت في المطار أنَّ الطائرة ستتأخر. انزعجت بشدة ....أنا لا أحب الانتظار، وإذا اضطررت إليه فلابد أن أفعل شيئًا خلاله...وللأسف ليس معى إلا كتاب واحد سأقرأه خلال الرحلة التى تستغرق قرابة العشر ساعات!! لم أعبر منطقة الجوازات فماذا سأفعل إذا دخلت الآن وأنا أعلم أن الطائرة متأخرة؟ قررت أن أجلس في إحدى الكافيتريات وأتناول وجبة خفيفة ...طلبت أيضًا كوبًا كبيرًا من النسكافيه...كنت في أشد الحاجة للتدخين، كتمت رغبتى، فلست بحاجة – الآن على الأقل – لسخافات بعض الأمريكيين؛ حين يطالبونك بإطفاء سيجارتك خوفًا من التدخين السلبى وهو المصطلح الجديد المتداول في هذا الوقت حتى وإن كانت المنطقة مسموح فيها التدخين!!

لم أكن أدخن فى مصر إلا في الفترة القصيرة التي سبقت سفرى. تعلمته من زميلتي ماجدة التي كانت مدخنة شرهة ...استطاعت – بحكم التصاقي بها في هذه الفترة – أن تعودني أولًا: على رائحة السجائر. وثانيًا: أنْ تحببنى فى التدخين ...

في نيويورك أصبحت مدخنة منتظمة، ولكنى لم أسرف أبدًا. أنا سيدة منظمة وأحب أن أحافظ على صحتي ..

لم تعجب محمود مسألة تدخينى كما لم تعجبه أشياء كثيرة خلال حياتنا معًا...

أصلًا هو لم يوافق على سفري. في البداية اعترض بشدة وكاد أن يحلف علي بالطلاق. لم يتغير الموقف إلا بعد وساطة رئيس القسم؛ حين أقنعه أن هذه السفرية هامة جدًا لمستقبلى كما أنها مجزية

ماديًا ...

رحت أرتشف من كوب النسكافيه بينما رغبتى فى التدخين على أشدها، ولا يزال الوقت أمامى طويلًا ..

دخلت جميع المحلات وقلبت فى معظم المعروضات، بل إنى اشتريت أيضًا ما لم أخطط لشرائه فما باليد حيلة لابد أن يمر الوقت ....

بلغ بى التعب مبلغه فقررت أن أجلس في أي مكان يصلح لذلك، أو أن أمر من الجوازات. وهذا أفضل. أخرجت جواز سفرى وفيه بطاقة الصعود للطائرة، نظرت فيها لأعرف رقم مقعدى في الطائرة. لطالما عانيت من تلك المقاعد القريبة من الجناح. وكانت المفاجأة، لم تكن البطاقة تخصنى وإنما كان الاسم المكتوب عليها : ألين جريفيث !!! كيف حدث هذا؟ نعم تذكرت.. يبدو أن مسز جريفيث هى السيدة الطاعنة فى السن التى ساعدتها، وأنا خلفها في الطابور على وزن أمتعتها، وكانت مرتبكة جدًا؛ لأنه من المفروض أن يأتى شخص ما من أقاربها ليساعدها، ولكنه لم يأتِ ولاحظتُ أنها تعانى من ضعف في البصر، كما أنها -أكثر من مرة - وقعت من يدها بعض متعلقاتها مثل النظارة وحافظة النقود وآخرها جواز سفرها نفسه، و قد انحنيت أكثر من مرة لالتقط من الأرض ما يسقط منها ....شكرتنى بشدة على ذلك، و قالت لى سأراك فى الطائرة ... من المؤكد أن بطاقات الصعود قد تبدلت أثناء الانحناء والقيام المتكرر ....يمكننى الآن أن أذهب للكاونتر وأنبههم إلى هذا الخطأ ....نظرت إلى هناك فوجدت الطابور ما زال طويلًا؛ فقد أتيت للمطار مبكرة ..

الحل أن أستريح قليلًا لحين يخف الزحام ثم أتوجه للكاونتر ومن ثم للجوازات.

وجدت كنبة صلبة لا يجلس عليها أحد. جلست ووضعت حقيبة يدي الكبيرة بجواري. وجدت فى نفسي رغبة شديدة في أن أتمدد وأضع ساقي على الكنبة ...لم أكن أستطيع أن أفعل ذلك في مصر. ..ألف عين سترمقنى وترشقنى بنظرات نارية إذا فعلت....هنا الوضع يختلف...تمددت على الكنبة ووجدت في نفسي جرأة كافية لأن أشعل سيجارة وأدخن غير عابئة بالتأكد إن كانت هذه المنطقة محظور فيها التدخين أم لا ...أخذت نفسًا عميقًا ثم وجدت نفسى أعيد التفكير في الطريقة التي رد

بها علي محمود...ما الذى حدث؟ تقابلنا في لندن كما ذكرت،أصر محمود أن يقيم معى علاقة فى نفس يوم وصوله ...كان متعبًا منهكًا ولكنه أصر ...أحسست وقتها أن محمود يضع العلاقة الحميمة في غير موضعها؛ هو يعتبرها واجب مقدس يعير إذا لم يقم به!!. بعدها ولمدة يومين كانت علاقتنا طبيعية بدون شد وجذب أو استنفار ثم كانت هذه المناقشة..... مناقشة عادية مثل العشرات من نقاشاتنا....هل جعلته يتخذ موقفًا منى مثلًا؟؟ أعلم أن محمود لا يكُن لي الحب الذى توقعته منه أوهكذا أصبح ....قصتي مع محمود طويلة ومعقدة، ولكى أكون صريحة: أنا أيضًا لم أعد أحبه، ربما لو كان لى منه ولد أو بنت لتغير الوضع ...هو لم ينسَ لي هذا ...مع أننى خيرته وكنت صادقة فيهذا ...فمن حقه أن تكون له ذرية. أتصور أحيانًا أنه بالفعل قد تزوج عليّ.

...دفعنى حب الاستطلاع لأن أقوم ببعض أعمال التجسس عليه؛ لأعرف الحقيقة ...لم أصل إلى شىء!!. ثم جاءت السفرية ونسيت أو تناسيت، ولكنى هيأت نفسي تمامًا لفكرة زواجه. بل إنى قلت لنفسي ربما جاءت هذه السفرية لتكون الذريعة القوية والفرصة التى لا تعوض ....نبرة صوته توحى لى بأنه قد تزوج!!.

أخذت نفسًا عميقا آخر من سيجارتوأحسست برغبة شديدة فى أن أسند رأسى وأغفو ولو للحظات. نعم فالأيام القليلة الماضية كانت سريعة الإيقاع ومشحونة بالعمل ولم أنم فيها جيدًا...أما ليلة أمس فلم أنم على الإطلاق!!؛ فقد كان آخر يوم عمل لى فى الكلية طويلًا: فى الصباح آخر محاضرة، ثم حفل الوداع الذي أقامه الطلبة، وفى المساء لقاءات عديدة مع بعض الأصدقاء والصديقات الذين حضروا ليودعونى ....ثم الانشغال في ترتيب الحقائب...ومع هذا التعب لم أستطع أن أنام ...كانت رأسي مشحونة بآلاف الأفكار: ماذا سأفعل عندما أصل للقاهرة؟كيف ستكون علاقتى بمحمود بعد التوتر والشد والجذب الذى حدث؟ هل أقبل العرض الذي جاءنى من الجامعة البريطانية؟ هل ستوافق جامعتي على ذلك؟ و ماذا سيكون موقف محمود؟ قررت ألا أستسلم للنوم وأن أقوم وأفعل أى شىء إلى أن يأتى الصباح، فأنزل مع باربرا لآخر تسوق، ثم آخر عشاء معها .

كان لا بد لي إذن أن أغفوولو قليلًا، ولكنى إنسانة حريصة وأعمل حساب لكل شئ. نظرت في ساعتى فوجدت أن الوقت المتبقي لإقلاع الطائرة ساعة ونصف. ضبطت منبه الموبايل بحيث لا يسرقنى الوقت، بعد نصف ساعة أقوم. أحاول إصلاح خطأ بطاقة الصعود ثم أتوجه للجوازات ولا مانع أن أبقى نصف ساعة في بوابة الخروج أوأكثر قليلًا ...أنا لا أحب البقاء طويلًا هناك؛ فاستمع إلى ثرثرة المصريين وارتفاع صوتهم في الكلام...

أعلم أننى لن أستطيع أن أنام؛ هكذا أنا ..لست من الطراز الهادىء الإيقاع المنظم بدون توتر. السهل الممتنع كما يقولون ....ربما سأغفو قليلًا، ولكنى أبدًا لن أنام ..

وضعت حقيبتى بجوارى على الكنبة والموبايل على الطاولة القريبة و أسندت رأسى على كفى و مددت ساقىّ على كامل طولهما ...كانت آخر فكرة في رأسي قبل أن أروح في الغيبوبة المؤقتة هي لماذا أنا اسمي فردوس عبد الرحيم الوراق؟ لماذا أطلق عليّ والدي هذا الاسم؟لماذا لم يسمنى نرمين أو شيرين أو دينا أو حتى منى؟ ثم إن فردوس معناه الجنة!! بالذمة هل حياتنطوال سبعة وثلاثين عامًا هي عمري- تستحق أن يطلق عليها: الجنة!!.

تلاحقت الأحداث بعد ذلك في سرعة مذهلة ..استيقظت من الإغفاءة على صوت زنجيين كانا يجلسان بالقرب منى ....خناقة أو مناقشة عنيفة ...نظرت فى ساعتىكانت الواحدة والنصف صباحًا. أصابنى الرعب و الهلع..الطائرة على وشك الإقلاع، أو أقلعت بالفعل!!. تلقائيًا نظرت إلى الطاولة بجانبي؛ أبحث عن موبايلي لأعرف لماذا لم يرن فى الميعاد؟..لم أجد الموبايل ...نظرت حولي لم أجده في أي مكان ...من المؤكد أن أحدهم قد سرقه أثناء نومي مع أنه موبايل عادي لا قيمة له...

ما العمل الآن؟ مازال أمامي عبور الجوازات ثم الدخول إلى البوابة. أخذت حقيبتي و طرت في اتجاه الجوازات ....مررت على مكتب الاستعلامات. كنت على ثقة أن الموظف هناك سيريح قلبى ويخبرنى أن الطائرة لم تقلع بعد..هي بالفعل متاخرة فلماذا لا تتأخر أكثر؟.

-من فضلك ..طائرة مصر للطيران الرحلة ٩٩٠ هل ...

-لقد أقلعت منذ ربع ساعة....

-هل أنت متأكد ؟

-طبعًا...أكيد أنتِ الراكبة التي ظلوا ينادون عليها لفترة طويلة!!.

يا نهار أسود ومنيل فاتتني الطائرة وعليها حقائبي!!.

هل هذا معقول؟...نمت ساعة ونصف كاملة!!. أول مرة في حياتى ...تروح عليّ نومة؟ وفى يوم كهذا؟ أنا لا أصدق... وهل تحتم أن يسرق موباليفي هذا التوقيت؟ ثم أنهم قد نادوا علىّ كثيرًا فكيف لم أستيقظ واسمى يتردد في أرجاء المطار، وأنا المشهورة بالنوم الخفيف؟ أم تراهم كانوا ينادون على مسز جريفيث باعتبارها صاحبة البطاقة الناقصة.على افتراض أنها لم تلحظ البطاقة ولم يلحظها أيضًا أي أحدٍ من القائمين على الرحلة!!.

ماذا أفعل الآن؟ ...لا يوجد شىء يمكن أن أفعله ...لا بد أن أخرج من المطار و أحاول أن أجد مكانًا أبيت فيه إلى أن تشرق الشمس، فأبدأ مشوارًا جديدًا لحجز تذكرة جديدة على طائرة جديدة .

حقائبى؟! عدت لمكتب الاستعلامات وسألت الموظف الذي كانت تبدو على وجهه أنه متأثر بما حدث لي ..سألته عن مصير حقائبي فأجاب بالتفصيل وشرح لى كيفية متابعتها واستلامها فى القاهرة ...

كثيرًا ما قرأت هذه العبارة واستخدمتها أيضًا فى كتاباتي "يجر أو تجر أذيال الخيبة" العبارة تصف بالضبط وضعي الآن.: مشيت من مكتب الاستعلامات وأنا أجر أذيال الخيبة متجهة إلى خارج المطار ....

قبل أن أخرج، فكرت في أنني لابد أن اتصل بمحمودلأخبره بما حدث؛ فليس من المعقول أن أتركه يرتب كل أموره على أنني سأصل في هذا الموعد...تذكرت أن موبايلى قد

سرق.وللأسف لا أتذكر رقم محمود لأنه غيره أكثر من مرة. أكيد أنا سجلته في مكان ما لا أتذكره الآن إلا أننى أحفظ عن ظهر قلب رقم تليفون منزلنا الأرضى. اتجهت إلى أحد التليفونات العمومية ولحسن الحظ وجدت عملات معدنية فى جيبى...هل تنقصنى هذه المصيبة؟ محمود لا يرد ....التليفون دائمًا بجانبه. فلماذا لا يرد والساعة الآن في القاهرة حوالي الثامنة صباحًا. هل هو"بايت برة"؟ هاجس جديد أضيفه إلى هواجسي القديمة !.

أعدت الاتصال بعد ربع ساعة ولم يرد أيضًا ....عامة هو لا يخرج من البيت قبل العاشرة فلماذا لا يرد؟ تضخم الهاجس عندى!!.

لا بد أن أغادر المطار الآنوأبحث عن مكان أقضي فيه ليلتى السوداء!!.فبعد قليل لا يضمنأحد التجول بأمان فى نيويورك...

ركبت سيارة التاكسى و ذكرت للسائق عنوان الفندق الذي أقمت فيهفي أول يوم لي في نيويورك.

فكرت طبعًا أن اتصل بباربرا وأبيت عندها، ولكن ما زال عندى شىء من الدم والخجل!.

فكيف اتصل بها في وقت متأخر هكذا؟ ثم إني مازلت خجلة من نفسى؛ كيف أقول لها أن الطائرة قد أقلعت بدونى وأنا التي كنت كثيرًا ما أؤنبها وأؤنب طلبة الدراسات العليا الآخرين إذا ما ذكر أحدهم أمامي كلمة: نسيت أو لم أتذكر!!!.

كانت سعادتى غامرة عندما أخبرني موظف الاستقبال بالفندقأنه توجد غرفة صغيرة خالية؛ لم أكن على استعداد لأن أدور وألف في شوارع نيو يورك لأبحث عن فندق آخر .

دخلت غرفتى واستمتعت بحمام دافىء محاولة أن أهيىء نفسي لنوم عميق ...أعلم أن هذا مستحيل بعد كل هذا التوتر وأحداث اليوم المختلفة عن أحداث أى يوم آخر!!.

استعنت بحبة من أقراص"الكالميبام" التي وصفها لي طبيب التأمين الصحي لتهدئة الأعصاب بعد أن شخص حالتي على أنها ارتفاع ضغط دم عصبى ناتج عن الإجهاد فى العمل ...يومها لم آخذ العلاج و قررت أن أستعين بالحبة فقط عند الضرورة القصوى؛ فأنا سيدة منظمة وحريصة على

صحتى ولن أكون أبدًا "عبدة" لعقار يتحكم في حالتى النفسية والعصبية.

اتصلت بخدمة الغرف وطلبت منهم ايقاظى في تمام التاسعة صباحًا. دخلت تحت الغطاء بملابسى الداخلية فقط؛ فلم أكن على استعداد أن "أكرمش" التايير الجديد الذي اشتريته خصيصًا للعودة!!.

بدأت حبة المهدىء تلعب برأسى ...ضحكت عندما تذكرت أن آخر ما فكرت فيه قبل اغفاءتى فى المطار هو أن اسم فردوس لا يعجبنى. ضحكت أيضًا عندما تذكرت ما حدث وأنا التي لم أتاخر أبدًا عن موعد، ولم يمنعنى النوم والكسل أبدًا من إنجاز ما أقررإنجازه. كانوا يلقبوننى "منبه" البيت؛ أوقظ أبي وأوقظ إخوتى وأوقظ زميلاتى وحتى وقت قريب أوقظ محمود!!.

أعلم تمامًا ما يحدث لي عندما آخذ هذه الحبة يصبح نومي غريبًا؛ تنام وتستيقظ وكأنك لم تنم، أحلامًا غريبة وخيالات وأطياف ...

في هذه الليلة كان النوم أغرب ....حلم واحد طويل ينتهى بأن أستيقظ ثم أنام مرة أخرى وأستكمل نفس الحلم. لا أستطيع أن أتذكر تفاصيله، ولكن المعالم الرئيسية فيه كانت أننى أناقش رسالة الدكتوراة – التى ناقشتها بالفعل منذ أكثر من خمس سنوات - أيضًا كنت أطير في الحلم وهذا – طبقًا لفرويد – منطقى جدًاعلى أساس أنني في الليلة السابقة كان كل تفكيرى في رحلة الطيران التي فاتتني!!. رأيت وجوهًا كثيرة؛ وجوهًا أعرفها، ووجوهًا مجهولة، وجوهًا كرهتها، ووجوهًا أحببتها

وتعلقت بها، ووجوهًا أثرتْ في حياتي سلبًا وإيجابًا ...الوجوه كانت تظهر وتختفى وتتبادل المواقع..الغريب أن محمود لم يظهر أبدًا في هذا الحلم ...لماذا؟ سؤال يجب أن أوجهه لسيجمون فرويد!!.

استيقظت في تمام التاسعة على صوت جرس التليفون، كانت خدمة الغرف على حسب طلبى.

كنت متعبة جدًا ..هل هذا من تأثير الليالي السابقة أم من حبة الكالميبام؟

فتحت التليفزيون كعادتي في الصباح ....يجب أن يكون التليفزيون في الخلفية قبل الذهاب للعمل.

دخلت الحمام وغسلت أسنانى ووجهى وقررت أن أتناول قهوة الصباح فى الخارج وليس في

الغرفة أو في الفندق؛ كسبًا للوقت فاليوم ربما يكون أطول من الأمس!!.

تذكرت أنني لم اتصل بمحمود. يجب أن أفعل هذا فورًا؛ لأنه الآن على وشك الذهاب للمطار لاستقبالي. لن يصدق أبدًا أنني حاولت الاتصال به ...هكذا هو ...

لو لم يرد سأتصل بأختى و لتتصرف هي في كيفية توصيل الخبر إليه ...هل معي عملات معدنية أخرى؟

ما هذا الذي يظهر على شاشة التليفزيون؟ ما هذا الذي تقوله المذيعة؟ هل يمكن أن يكون هذا حقيقة أم أننى مازلت في الحلم الغريب ولم أستيقظ بعد؟

لقد سقطت طائرة مصر للطيران الرحلة رقم ٩٩٠ وعلى متنها ٢١٧ راكب!!!!!

يا إلهي ...لا أستطيع أن أسيطر على نفسي ...اقتربت من التليفزيون، أكاد التصق به.

...الخبرصحيح رقم الرحلة وتوقيتها هو نفس رحلتى ....هذا شيء لا يصدق ...سقطت طائرتى..

أنا نجوت من الموت ...أنا ما زلت حية ...لا بد أن أتأكد ...هل أنا ركبت الطائرة ومت وأنا الآن في العالم الآخر؟ هل أقرص نفسي الآن لأتأكد أنني حية أم أنني أحلم حلمًا غريبًا من تأثير الحبة المهدئة؟

لقد نجوت من الموت ...لقد جعلني الله العلى القدير أغفو في مطار جون كينيدى الضخم المزدحم الملىء بالضوضاء وأنا الشاكية من الأرق دوما!!

أرسل الله لي من يسرق موبايلي فلا أتنبه في الوقت المناسب. وتقلع الطائرة بدونيفأنجو من الموت ...يا الله

دخلت الحمام وتوضأت بذمة ...لا أعرف أين القبلة هنا.... ربما تكون في هذا الركن.

..صليت ركعتين شكرًا لله. لا أدري كيف صليت؟ هل قرأت الصمدية أم الكوثر؟ هل تلوت نصف التشهد أم كلها؟ عقلي لا يسيطر على جسدي و حركتي ....أحمدك يا رب وأشكر فضلك، أنا حية أنا حية!!

و فجأة أضيء في عقلى مصباح أحمر بقوة ألف واط....لا أحد في مصر يعرف أنني لم أركب الطائرة!! وهنا - في أمريكا – باربرا و جيفرسون و الطلبة والموظفون كلهم على علم بموعد الطائرة و أكيد باربرا أخبرتهم أنها أوصلتنى بنفسها لباب المطار ...باب الموت .

مسكين محمود ...مسكينة إحسان شقيقتى ...مسكين بابا. لقد علموا الآن بالنبأ الأليم ....ماذا سيكون إحساسهم الآن عندما اتصل بهم وأخبرهم أننى مازلت على قيد الحياة؟ من أكلم أولًا ...محمود أم باربرا ..حتى يطمئن الطلبة اللذين لا بد وأن الصدمة قد أصابتهم بالذهول؟ المصيبة أن تليفونى مسروق....أكيد محمود المسكين يحاول أن يتصل بيالآن على أمل النصف فى المائة؛ ألا أكون قد ركبت الطائرة لأي سبب من الأسباب ...

باربرا متوقدة الذهن، أكيد بعد أن تتمالك نفسها ستحاول الاتصال على نفس الأمل!

يا إلهي ...أريد أن أنزل الشارع وأقول لكل الناس: أنا لم أركب الطائرة!!

غادرت غرفتي والفندق واتجهت إلى أحد التليفونات العمومية ....اتصلت بمحمود على رقم المنزل أيضًا لم يرد ....اتصلت بإحسان ...لا ترد ....هذا منطقي فالجميع لا بد أن يكونوا قد هرعوا إلى المطار بعد أن علموا بالنبأ المشئوم ... يا ربي ماذا أفعل؟ يمكنني أن اتصل بواحدة من زميلاتي أو برئيس القسم ...صحيح أن موبايلي مسروق، ولكنني دونت بعض أرقام التليفونات في مفكرة صغيرة أحتفظ بها في حقيبة يدي دائمًا ....لا بد إذن أن أصعد إلى غرفتي لأبحث عنها. وجدت زحامًا أمام المصعد. غرفتي في الدور الثالث سأصعد على السلم؛ لا يمكننى الانتظار ..رحت أصعد درجة درجة ومع كل درجة أصعدها يطل أمامي المشهد الغريب: أنا الآن في نظر أهل مصر ميتة، وقد تأكد لهم الخبر لأننى ببساطة لم اتصل بهم ولأنني لا أرد على تليفوناتهم و أنه على ما يبدو لم ينجُ أحدٌ من ركاب الطائرة...

عندما وصلت للدور الثاني أضيئت في عقليلمبة حمراء هذه المرة بقوة مليون واط!! أشعلت حولها كل حواسي واستنفرت كل قواى ....لست أدري أي شيطان رجيم أضاء في عقلي هذه الفكرة.

بل إن الشيطان الرجيم نفسه ربما لم يفكر فيها من قبل!!!

لماذا لا أظل ميتة في نظر هؤلاء؟

سأتجاوز عن الألم الذي سأسببه للكثيرين – وإن كنت أعلم أن ألمهم لن يكون كما قد يتوقع البعض – سأتجاوز عن طبيعة الخدعة التى سأقوم بها و التي لا تتفق مع مبادئى وأخلاقى. سأتجاوز عن أشياء كثيرة، ولكنى سأنفذ فكرتى ...إذا أردتم أن تعرفوا السبب القوى الذى يدعونى لذلك؛ فأعيدوا قراءة السطور الأولى من حكايتى ..

أرسل الله إليّ من يسرق موبايلي وجعلني أغفو وأنا صاحبة الأرق المزمن....تبدلت بطاقة صعودي مع بطاقة مسز جريفيث....كل هذا صدفة؟ لا ... هذه رسالة، إشارة، منحة إلهية،هبة سماوية ....صدفة أيضًا أن أحاول أن اتصل بزوجي و بشقيقتى وأفشل في ذلك فلا يعلم أحد أننى مازلت حية؟....ما هذا؟ أستغفر الله العظيم ..أستغفر الله العظيم.. أستغفر الله العظيم ...هل أخطأ عزرائيل وبدلًا من أن يقبض روحي قبض روح مسز جريفيث مثلًا!!!

لا يمكن أن تكون كل هذه صدف...هذه إشارة ونقطة تحول... ..لا تراجع إذن ولا استسلام.. أنا الآن المرحومة فردوس عبد الرحيم الوراق،ولكن ينبغى أن أسبك الخدعة لامجال الآن لشغل الهواة. حان وقت عمل المحترفين؛ أولًا: يجب التأكد من أن قصة الراكبة التي تخلفت عن الركوب فى آخر لحظة لم تتسرب ....سأقرأ كل الصحف الأمريكية والمصرية حتى أتأكد ....ثانيًا: ينبغى أن أغير قليلًا من شكلى؛ إذ ربما يرانى أحد الطلبة أوحتى باربرافتنكشف اللعبة ...آه باربرا!!!كنت على وشك أن اتصل بها وأخبرها بالحقيقة، ولكن غيرت رأيى....ربما أخبرها فيما بعد لتكون جزءًا من اللعبة، ولكن الآن لا ...لا مجال للخطأ ...سأغير من شكلى ...يا إلهى أنا الآن في أسعد حالاتى!!

قد تكون هذه قسوة بالغة في المشاعر ....أن أكون هنا في أسعد حالاتوأنا أعرف أن محمود – مهما كان اختلافي معه – يبكى الآن على الأقل على عشرة عقد كامل من حياتنا معًا وأب مكلوم – مهما كان اختلافى معه –يبكي ابنته التي ماتت في ريعان شبابها ....ولكن معذرة ليس هذا وقت الكذب ..أنا بالفعل الآن في أسعد حالاتى!!

طلبت وجبة خفيفة من خدمة الغرف واستمتعت بتناولها وأنا أقلب فى المحطات بحثًا عن تفاصيل جديدة عن حادث الطائرة.

وضعت مبلغًا كبيرًا من الدولاراتكنت سأعود به للقاهرة فى خزينة الغرفة وأخذت فقط ما يكفينى

لما أنوى فعله الآن .انطلقت بكل ثبات إلى الشارع وتوجهت إلى الكوافير الذى ظللت طوال عامين أقف على بابه وأتردد فى الدخول ...منذ زمن طويل وأنا أحلم أن أقص شعرى الأسود الناعم الطويل على طريقة المطربة الفرنسية الشهيرة ميراى ماثيو والتى كنت أعشقها فى فترة السبعينات. صارحت محمود برغبتى هذه، فأكمل قراءة جريدته وقال: أوعى تعملى كدة ...الأنثى فى نظرى يعنى شعر طويل!! كتمت رغبتى فى صدرى وكظمت غيظى، ولكنى لم أنسَ أبدًا هذه الأمنية! حان الوقت الآن لأستمتع بالشكل الذى أريده ...

على فكرة، أنا – طوال عمرى – أرى نفسي أنثى قبيحة أوعلى الأقل غير جميلة وقد أثر هذا على نفسيتى جدًا ....والغريب أن والدتى رحمها الله كانت تتعجب من ذلك وتؤكد لى أننى جميلة. جميلة بالفعل وكذلك قالت لى أختى إحسان. أما من هم أكثر صراحة مثل صديقاتى وزميلاتى بل وأصدقائى كانوا يقولون لى فى مناسبات مختلفة أن شكلى لطيف جدًا ....أما محمود فلم يعلق أبدًا على هذه النقطة ...غريبة أليس كذلك؟

و عندما أرجعت ذلك للمقاييس والمعايير الجمالية-وليس لذوقى أو لذوق الناس- وجدت أننى مقبولة الشكل بوضوح....فأولًا: أنا أميل للبياض ولست قمحية اللون مثل معظم المصريات. وثانيًا: قامتى متوسطة لست بالطويلة ولا بالقصيرة على الإطلاق. وثالثًا جسدى متناسق- حتى هذه اللحظة – أمتلك صدرًا ممتلئًا وعامرًا ومؤخرة بارزة بجمال، ولكنها ليست كبيرة مطلقًا ...كما أن لى "وسط" لم يعد- للأسف- للمصريات وسط هذه الأيام!!

لون عينى عسلى عادى ....لكم تمنيت أن أضع-ولو مرة واحدة-عدسات لاصقة ملونة! فكرت فى اللون الأخضر وجربته فى أحد المحلات وجدته مناسبًا ويضيف إلىّ بريقًا ملحوظًا...صارحت محمود برغبتى فقال لى: بلاش عبط، هذا لا يليق بك. أنت الآن مدرسة فى الجامعة وعن قريب ستكونين أستاذة ...ماذا يقول الطلبة عندما يجدونك وقد غيرت من لون عينيك؟ أحبطنى فكتمت رغبتى فى صدرى، ولكن هيهات... لم أنسها أبدًا!

دخلت محل الكوافير واستقبلنى "بيل" بحرارة رغم أنه لا يعرفنى. طلبت منه أن يقص شعرى على

طريقى ميراى ماثيو وأن يعطينى ما سوف يقصه. الغريب أنه عرف المطربة على الفور. وقال لى أن الكثير من السيدات يطلبن هذه "القَصة". جلست على المقعد واستسلمت تمامًا لمقصه.لا أستطيع أن أصف شعورى ..قمة السعادة ربما ....الانبهار جائز ...وهو يضرب بمقصه هنا وهناك ...و فى النهاية فتحت عينى و لأول مرة فى حياتى أنظر للمرآة وأبتسم .....هى دى ....تمامًا ميراى ماثيو ....طز فيك يا محمود !! دفعت للكوافير وأجزلت له العطاء فى البقشيش؛ لأننى كنت سعيدة!!

ما هذا الذى أرتديه؟ نعم إنه التايير الكلاسيك الذى اشتريته لأعود به للقاهرة ...سئمت من لبس التاييرات والبدل والملابس شبه الرسمية والحذاء ذو الكعب العالى والشراب الفيليه ...ملابس القاء المحاضرات ومناقشة الرسائل وحضور المؤتمرات ...الحمد لله لقد ذهبت ملابسى كلها فى ستين داهية ،احترقت مع الطائرة المنكوبة ...

إنها فرصتى الآنمعى نقود كثيرة. دخلت المول الكبير وولجت إى محل الملابس الكاجوال.

اشتريت أحلى بنطلون جينس وجدته...عندما دخلت غرفة القياس وارتديته فقط مع السوتيان الأسود بدا لى جسدى رائعًا ومثيرًا!!

انتقيت عدة بلوزات بألوان زاهية ..وداعًا للأسود والرمادى ....لا مانع أيضًا من شراء فستانين رائعين....ليس من المعقول أن أرتدى الجينس فقط ..

أخيرًا دخلت محل العدسات ....جربت ثلاثة أزواج من العدسات خضراء اللون. أخبرتنى البائعة أن الزوج الأخير هو الأكثر انسجامًا مع لون بشرتى وقصة شعرى ...اشتريت ستة أزواج و خرجت وأنا أضع واحدًا منها.

الجينس الضيق، والشعر القصير، والعدسات الخضراء، والبلوزة، والصدر النافر ...لن تستطيع باربرا حتى أن تتعرف على!!

عدت للفندق ...أكاد أجزم أن موظف الاستقبال لم يتعرف على. وأنه أعطانى مفتاح الغرفة وهو مرتاب؛ فالتى كانت تسكن فى الغرفة ٣٤ امرأة ترتدى تايير كحلى آخر موديل وآخر كآبة!!

وحذاء بكعب عالى، وشعرها طويل وتسريحتها لا اسم ولا معنى لها!! والتى أمامه الآن عكس ذلك

تمامًا!

دخلت غرفتى وخلعت كل ملابسى.وضعت بونيه نايلون على رأسى وأخذت حمامًا دافئًا واستمتعت به كما لم أستمتع من قبل. خرجت وأنا أشعر أن الماء قد أزال عنى غبار سبعة وثلاثين عامًا وأننى الآن أنثى جديدة!

قررت أن أحتفل مع نفسى بمظهرى الجديد. نزلت للاستقبال لأسلم مفتاحى قال لى الموظف:

- معذرة سيدتى، لا أريد التطفل، ولكن هل قصصت شعرك؟

-نعم

- اسمحى لى أن أقول أنك قد صغرت عشرة أعوام!!

-أشكرك ..

ابتسمت له وأنا فى حالة لا يوجد ما هو أروع منها!!

ركبت التاكسى و توجهت إلى مطعم الباراديزو. دعوت الله ألا أجد فيه أيًا من الذين عرفتهم فى نيويورك. على العموم سيكون ذلك اختبارًا لمظهرى الجديد..

كنت فى شدة الجوع. تناولت طعامى بشهية غريبة و طلبت الحلو. لم أفعل ذلك منذ وقت طويل حفاظًا على رشاقتى ..

جلس إلى مائدة أمامى رجل أبيض فى حوالى الأربعين من عمره أو أكثر قليلًا. طويل القامة، مليح التقاطيع، شديد الأناقة. كما أنه يبدو مألوفًا. راح ينظر إلىّ طوال الجلسة. اكتشفت أنه يراقبنى وأنا أتناول الطعام وحين أنظر إليه يتظاهر بالانشغال بالأكل ..أعجبنى شكله ...تمنيت أن يجلس إلى مائدتى وأن يدور بيننا حديث!! تذكرت محمود، هل أنا خائنة؟ ولكنى ميتة!! على العموم هى مجرد أمنية. لن أفعل أى شىء لتكون حقيقة.

دهشت عندما قام الرجل من مجلسه و اتجه إلى مائدتى وابتسم قائلًا:

-سيدتى ...لست متطفلًا، ولكن يراودنى هاجس ملح فى أننى رأيتك من قبل ..أنا أظن أنك أستاذة مصرية كانت تلقى محاضرة عن أدب نجيب محفوظ ..فأنا من المهتمين بالأدب العربى ..هل أنا مخطىء؟

- أنت على جانب من الصواب؛ أنا لبنانية – أى عربية – ولكنى لا ألقى محاضرات فى الأدب وإن كنت أحب نجيب محفوظ. أنا مضيفة طيران.

- أنا آسف جدا ، هل لى أن أتشرف بمعرفة اسمك؟

ترددت قليلًا ثم قلت : فدوى ... فدوى عبود ...

مد الرجل يده فى جيبه و أخرج كارت من علبة أنيقة وأعطاه لى وقال:

- أتمنى أن نلتقى يومًا ما وآسف مرة أخرى .. -

-

إلى اللقاء .. -

قرأت الاسم على الكارت: شيمون باخوم ..

تذكرت الرجل بمجرد قراءتى للاسم ؛ إنه أستاذ آداب إسرائيلى يتردد على نيويورك باستمرار ويهتم فعلا بالأدب العربى و أنا أتذكر جيدا أنه كان مدعوا فى أحدى ندواتى.

عندما كنت فى العاشرة أخبرت والدى ذات يوم برغبتى فى أن أكون مضيفة طيران. نظر لي

شذرًا وقال: أولاد الناس لا يعملون فى هذه المهنة!! إنهم يبيتون خارج منازلهم ...لم أقتنع يومها بهذا الكلام ...إنها مهنة مثل كل المهن ...والدى أحبطنى ..

لماذا سميت نفسى فدوى؟ ولماذا لبنانية؟يومًا ما سأعرف لماذا نطقت بهذا الاسم وهذه الجنسية؟

على العموم استفدت من هذا العشاء ومن لقاء هذا الرجل؛ تبين لى على الأقل أن شكلى لم يتغير بما فيه الكفاية وأنه من الممكن أن يتعرف على أحدهم و تنكشف لعبتى ...لا بد إذن أن أغادر نيويورك قريبًا إن لم يكن الولايات المتحدة كلها!!

صباح اليوم التالى، ارتديت ملابسى على عجل و توجهت إلى محل فى آخر الشارع. عدت ومعى رزمة كبيرة من الصحف؛ أمريكية وعربية و إنجليزية ...جلست على سريرى أحمل كوبًا كبيرًا من النسكافيه بيد وباليد الأخرى أقلب فى صفحات الجرائد.

قرأت كل تفاصيل الكارثة ولم أجد أى إشارة إلى راكبة تخلفت فى آخر لحظة. فقط ربما قصة راكب بذل كل جهده ليلحق بهذه الطائرة وفشل فكتبت له النجاة!! أيضًا قصة واحد من طاقم الضيافة استبدل مع زميله المواقع فبقى هو فى نيويورك و سافر زميله فلقى حتفه!!

لماذا إذن لم تنكشف قصتى؟ من المؤكد أنهم نادوا علىّ أو على مسز جريفيث – على حسب التصرف تجاهها عندما اكتشفت أو اكتشفوا أنها تحمل بطاقة غيرها - وعندما لم أرد أو لم ترد أتموا إجراءاتهم و أبلغوا المسئولين أن راكبة تخلفت ....هل هذه الخطوة لم تتم أم أنها تمت ولكن المسئول عنها لم يبلغ..أو ربما لقى حتفه ....لا أدرى و ليس هذا مهمًا. المهم أنه بات واضحًا أن من الصعب اكتشاف لعبتى. اللهم إلا إذا تم سؤال الجوازات؛ لأننى لم أمر عليها ولم أخرج من أمريكا فى هذا اليوم ...ولكن من سيسأل الجوازات؟ لقد سقطت الطائرة وعليها حقائبى وتسعين فى المائة صعدت بطاقتى مع مسز جريفيث ....إذن أنا فى نظر الجميع ميتة!!

علمت من الصحف أن أهالى الضحايا سيحضرون إلى جزيرة قريبة هنا – رود أيلاند –للتعرف على بقايا ذويهم و لحضور حفل تأبينهم ...هل سيأتى محمود أم أنه وقع الاختيار على والدى؟

انتهيت من القراءة وأخذت ورقة من البلوك نوت الموضوع أمامى على التسريحة ورحت أشخبط فى الفراغ الأبيض بخطوط وأرقام ورموز وعلامات تعجب واستفهام ...

رحت أفكر فوجدت أننى إذا فكرت أن أغادر نيويورك فيجب أن يكون هذا إلى ولاية لا يعرفنى فيها أحد....أعيش فيها لفترة ما حتى أتأقلم على وضعى الجديد وحتى أعرف ما الذى أنوى أن أفعله بالظبط .....ليس لدى خطة طويلة المدى، فالله وحده أعلم ما الذى يمكن أن تنتج عنه هذه المغامرة و كيف يمكن أن تنتهى .....خطتى على المدى القريب إذن هى مواصلة الاختفاء حتى يترسخ الأمر: أننى فى رحاب الله!!

ولكن إذا غادرت نيويورك إلى واشنطن مثلًا أوحتى كاليفورنيا، فماذا سأفعل هناك؟ فكرت أن أعمل. ليس ضروريًا أن أعمل كأستاذة أدب. يمكننى أن أعمل فى أى شيء. لماذا لا أعمل كمضيفة فى كافيتريا؛ نادلة يعنى ..أو بائعة فى مكتبة أو محل ملابس ...ليس هذا غريبًا علىّ؛ لقد بدأت حياتى العملية مبكرة جدًا ....فى سن الرابعة عشر أعطيت دروسًا لمحو الأمية لبعض رجال

و سيدات الحى و تقاضيت عن ذلك ٥٠ قرشًا بحالهم فى الحصة! وفى السادسة عشرة كنت المسئولة عن حسابات عم حنفى الجزار والذى كان صديقًا لوالدى وكان يعطينى شهريًا مبلغًا وقدره!! وقتها كان لا بد لى أن أعمل. وضعت هذا عقيدة راسخة فى عقلى. لا بد أن أعمل؛ لأننى لا بد أن أرفع مستوى معيشتى ومعيشة أسرتى ...كانت طموحاتى كبيرة. كنت أريد أن أخرج من دائرة عائلة سائق القطار ....نعم والدى كان سائق قطار ...لو كنت فى بريطانيا أو أمريكا كنت سأفخر ربما بمهنة والدى أوعلى الأقل لم أكن لأخجل من ذكرها ...ولكن فى بلد مثل مصر لابد أن تتردد قبل أن تنطق وتقول: والدى سائق قطار!! مع العلم أن سائق القطار يتقاضى بدلات وحوافز ومرتب لا بأس به ، ولم يكن دخلنا الشهرى ضئيلًا جدًا أو كنا نشكو الفاقة، ولكن فى النهاية فإن والدى كان سائق قطار أى أنه تم تصنيفه على أنه من محدودى الدخل وأنه من الفئات الاجتماعية الأقل!!

كان لابد لى إذن أن أخرج من شرنقة أبى. لابد أن أعمل ليكون لى مصروف غير مصروفى العادى فأستطيع أن أظهر بمظهر يختلف عن المظهر المفترض لابنة سائق قطار ...

لم يحدث أن شعرت بالعار من مهنة أبى، ولكن لم لا أحاول أن ارتقى بمستوانو مستوى العائلة؟

لم يرفض أبى هذه الفكرة أبدًا ....فكرة أن أعمل وكان هو الذى يبحث لى عن العمل فى الصيف أو بعد المدرسة. وقتها تصورت أن هذه سعة فى أفقه و احترامًا لقيمة العمل وأيضًا قيمة المرأة، و لكنفيما بعد أدركت أن هذه ليست الصورة كاملة!!

يمكننى أن أعمل إذن فى نيوجرسى أو واشنطن أو لوس أنجلوس وبالتالى لا أمد يدى إلى دولاراتى المدخرة ....تحويشة العمر!

حين وصلت إلى هذه المرحلة من التفكير تذكرت أمرًا فى غاية الأهمية ....تذكرت أننى قد تلقيت عرضًا من جامعة برمنجهام فى بريطانيا لالقاء محاضرات لمدة ثلاثة شهور تبدأ بعد أعياد الكريسماس ...أى بعد شهرين.. و تذكرت أننى لم أرسل إليهم بالردوتذكرت أيضًا أن الترشح لهذه الوظيفة لم يجىء من الجامعة فى نيويورك أومن الجامعة فى مصر وإنما جاء نتيجة اجتهاد شخصى منى ومشاركة ببعض الأبحاث والأعمال...و نظرًا لأننى قد اخترت موضوع يهم الغرب

جدًا كتبت فيه طويلًا وهو تأثير الحياة الاقتصادية والاجتماعية على الأدب وخاصة أدب الرواية فى دول الشرق الأوسط ...

جريت إلى موظف الاستقبال وطلبت منه أن أدخل على الأنترنت من أقرب مكان ...كتبت رسالة للجامعة أقبل فيها الوظيفة وأوافق على كل بنود العقد. رغم أننى لم أكن أتذكر جيدًا شروط التعاقد وطلبت منهم أن يردوا علىّ فى أسرع وقت حتى أستطيع أن أرتب أمورى قبل أن أعود للوطن.

....هذه فعلًا فكرة جيدة ...بريطانيا مكان أختبىء فيه ...مرحلة انتقالية حتى أقرر ماذا سأفعل بالظبط ....

أحيانًا كانت تبدو لى لعبتى فى غاية السخف والصبيانية وألوم نفسى بشدة. وأحيانًا أخرى تبدو لى عين العقل وأننى قد اتخذت القرار المناسب فى الوقت المناسب وانتهزت الفرصة التى تجىء فى العمر مرة واحدة ....من العدل أن أتخلص من حياة لم اكن أبدًا راضية عنها!!

لم أنتظر موافقة الجامعة ....قررت أن أسافر إلى بريطانيا....فقط ثلاثة أيام أخرى قضيتها فى نيويورك أعد جيدًا لمغامرتى القادمة ...أين سأسكن وكيف سأدبر أمور معيشتى إلى أن يحين موعد بدء المحاضرات – هذا إذا وافقت الجامعة - ولكن ما شغل تفكيرى بحق خلال هذه الفترة هو: هل أغامر وأزور القاهرة؟ كنت أتمنى أن أحضر يوم عزائى!! كنت أتمنى أن أجلس وسط المعزين أسمع تعليقاتهم و ردود أفعالهم تجاه هذا الحدث الكبير؛ حدث وفاتى فى طائرة منكوبة لم ينجُ أحدٌ من ركابها!!

تمنيت أن أرى قبرى وأن أرى تصرف محمود تجاه مسألة دفنى"الأفتراضى". هل سيدفننى فى مقابرنا المتواضعة فى الغفير؟ أم سينفذ وصيتى ويدفننى فى المدفن الجديد الذى اشتراه بطريق السويس بعدما أفاض الله عليه بالمال فى الأونة الأخيرة ....تمنيت أن أرى تعبيرات وجهإحسان شقيقتى وهى تستقبل المعزين ....أريد أن أعرف مدى حزنها علىّ ...

أردت أن أرى بنفسى هل سيقوم محمود بتفحص المعزيات بدقة ليرى من منهن تصلح لأن تكون

زوجة له بعد أن اختفيت أنا من حياته. تذكرت المشهد الخالد فى فيلم الزوجة الثانية عندما كان الفنان القدير صلاح منصور يتفحص الفلاحات ليرى من منهن الأصلح!!

أما شقيقاى التوأم فلا أظن أبدًا أنهما سيكلفان أنفسهما – حتى وإن استطاعا – أن يحضرا من السعودية ليتقبلا العزاء فى!! فقط ربما سيتصلان تليفونيًا بوالدى أو بمحمود حتى لا يحاسبا على التقصير!!!

كل شىء فى مصر أصبح أداء واجب حتى لا تتم المحاسبة!!

كيف سيكون حال والدى؟ أموت وأرى تعبير وجهه فى هذه اللحظات ....أعلم علم اليقين أنه يحبنى وأعلم علم اليقين أنه سيحزن علىّ، ولكنى أعلم أيضّا أنه يحبنى على طريقته وسيحزن على أيضّا على طريقته!!

الوحيدة التى كنت سأكون على علم تام برد فعلها تجاة موتى هى أمى رحمها الله! الوحيدة التى كنت سأكون متأكدة أنها ستنهار تمامًا ولذا لم أكن لأقدم أبدًا على هذه المغامرة لو كانت على قيد الحياة!! العلاقة بيننا كانت واضحة وصريحة وطبيعية ....اختلفت معها كثيرًا و تشاجرت معها كثيرًا،ولكن أبدًا لم ينقطع بيننا الحب على مر السنين ....انهرت تمامًا بعد وفاتها وظننت أنه لن تقوم لى قائمة بعد ذلك ...ولكن كان لا بد أن أقوم مرة أخرى ...إن لم يكن من أجلى فمن أجل إخوتى.

حسمت الأمر مع نفسى وقررت ألا أذهب للقاهرة ....لن أستطيع ....سينكشف كل شىء ....لن أغامر .يومًا ما سأعود و سأعرف الحقيقة وكل التفاصيل.

مرة أخرى مطار جون كينيدى ....الطائرة المتجهة إلى لندن ....شتان بين المرتين؛ فى المرة الأولى المشاعر غريبة وغامضة: امرأة المفروض أن تكون سعيدة لأنها عائدة إلى وطنها ....زوجها ..إخوتها ...والدها...عملها وكيانها، ولكنها لا تحس بذلك لأنها

تعلم أنها عائدة وقد تشعر بالسعادة ليوم أو يومين بعد عودتها وبعد ذلك سيعود كل شيء إلى ما كان عليه....لعبة القط والفأر مع الزوج ...لعبة الملل والتمثيليات مع الأب والشقيقة ...الصراعات والتجاهل فى العمل!!!

اليوم المشاعر مختلفة ...أنا ذاهبة للمجهول ...للمغامرة .. حياة جديدة، عمر جديد. أعرف الصعوبات التى ستواجهنى ...أن أكون أنا ولا أكون فى نفس الوقت! أعرف أن من الجائز أن تنكشف اللعبة كلها بمجرد أن يرانى أحد يعرفنى ويعرف أننى كنت ضمن ركاب الطائرة المنكوبة....و لكن لا يهم؛ سيمكننى أن أتصرف وأخرج من المأزق .

جلست بجانبى امرأة خمسينية أنيقة تبدو أنجليزية وبها آثار جمال قديم ..أحسست أنها تريد أن تبدأ حديثًا معى فالمسافة طويلة ....أبديت استعدادى فقالت:

-تبدين من الشرق فمن أى بلد على وجه التحديد؟
-من مصر..
- ممتاز... أنا زرت مصر من قبل. إنها بلد رائع ...أوه أنا آسفة؛ سمعت أن طائرة مصرية سقطت فى المحيط منذ أيام قليلة ....إنه حادث بشع!
-نعم أعرف.... إنها مأساة بمعنى الكلمة.
- ما اسمك؟ هل اسمك فاطمة أم نادية أم هدى؟ هذه هى الأسماء المصرية التى أعرفها ...ها ها
- أنا اسمى شيرين ...شيرين النجار .
- تشرفت بمعرفتك ، أنا هيلين و زوجى يدعونى هيل - أى الجحيم - هاها... ماذا تعملين ؟
- انا استاذة مساعدة فى العلوم السياسية بجامعة القاهرة ..
- ممتاز ولكنك تبدين أصغر من أن تكونى كذلك...لا بد أنك شديدة الذكاء!!
- ----
- هل ستكملين الرحلة للقاهرة ؟
- لا بل سأظل فى لندن لفترة ....سألقى بعض المحاضرات هناك ...

- عن أى موضوع؟
ترددت قليلًا ثم قلت:رؤية مستقبلية للسلام فى الشرق الأوسط ...
- أوه.... هذا موضوع خطير ..
بالرغم من أن السيدة تبدو ثرثارة إلا أنها أبدت استعدادًا خاصًا لسماعى وعدم مقاطعتى ..انتهزت هذه الفرصة ورحت أروى لها قصة أزمة الشرق الأوسط والصراع العربى الإسرائيلى منذ عام النكبة مرورًا بكامب دافيد ثم أوسلو وحتى الوقت الحاضر ...طبعًا كل هذا اعتمادًا على معلوماتى العامة وليس بصفتى الكاذبة كأستاذة للعلوم السياسية!!

عام ١٩٧٧ كنت فى الثانوية العامة ....عرفت النجاح والتفوق طوال سنوات عمرى. دائمًا كنت الأولى أو الثانية وعند مفترق الطرق ...فى السنة الثانية الثانوية كان علىّ أن أحدد علمى أم أدبى ....كان يمكننى أن أثبت وجودى فى الاتجاهين، ولكنى وجدت نفسى أميل إلى الأدبى ...منذ طفولتى وأنا أكتب القصة والشعر والأغنية وأحب التاريخ واللغات.

...التحقت بالقسم الأدبى ووضعت فى ذهنى أننى لابد أن أحصل على مجموع كبير لألتحق بكلية الاقتصاد والعلوم السياسية أوالإعلام. وكانت هذه رغبة متواضعة جدًا لأنه لم يحدث أبدًا أن كانت الدراسة تشكل أى عبء أو مشكلة بالنسبة لى ....استقر رأيي على الاقتصاد والعلوم السياسية ووضعت لنفسى هدفًا لا أحيد عنه أن ألتحق بعدها بالسلك الدبلوماسى ...أريد أن أكون سفيرة!!

مرت امتحانات الثانوية العامة على خير إلا أن يوم امتحان الجغرافيا أحسست بألم شديد فى أمعائى وأسفل ظهرى ...ألمٌ أنا معتادة عليه ....لقد فاجأتنى دورتى الشهرية أثناء الامتحان. لم يكن موعدها ولم أحتطْ لذلك ...ليس معى دواء أو حفاضات ....(حالتى كرب)!!

كان الامتحان سهلًا وكان يمكننى أن " أقفله " كما يقولون ....كنت على استعداد أن أكتب صفحات وصفحات ولكن الألم كان يطغى علىّ والخوف من الدم فى لجنة الامتحان جعلنى أكتب بسرعة و بدون تركيز حتى أتخلص من الموقف المحرج!!

أعطيت الورقة للمراقب وجريت إلى الحمام ..

كانت النتيجة محبطة؛ حصلت على أعلى الدرجات فى كل المواد و بالكاد درجة النجاح فى الجغرافيا ....كان المجوع مرتفعًا و كنت الثالثة على أدبى المدرسة، ولكن فرقت معى درجتين على السياسة والاقتصاد ودرجة واحدة على الإعلام أى أن نصف درجة مئوية حرمتنى من تحقيق حلمى و جعلتنى أجلس الآن مع هيلين وأكذب بشأن مهنتى!!

كان لابد لى أن أقرر بأى كلية سألتحق و كيف سأحفظ ماء وجهى....الحقوق؟ لم أتخيل نفسى محامية مع أن كل من عرفنى فى طفولتى ومراهقتى أكدوا لى أننى من الممكن أن اكون محامية بارعة؛ فقد عهدونى أدافع عن الحق إلى درجة الاستماتة، وعهدونى فصيحة اللسان أستطيع أن أتكلم بسرعة ألف كلمة فى الدقيقة بدون خطأ يذكر!! و كان معظم المدرسين يطلقون على لقب الغلباوية أو المشاغبة!! لكنى لم ألتحق بالحقوق لأسباب عديدة .

التجارة؟ ولا التجارة ...لا أحب الأرقام وإن كنت مدبرة وأحسب حساباتى بكل دقة!! مالها الآداب ...نعم الآداب ...أى كلية سألتحق بها أضمن أننى سأتفوق فيها. أعرف نفسى

وأعرف قدراتى: بدأت أفك الخط فى الرابعة وأجدت القراءة والكتابة فى السادسة وأعطيت دروسا فى العاشرة ....أعرف نفسي
سألتحق بالآداب ....و بالذات قسم اللغة الأنجليزية ...أصعب قسم ...اللغة العربية أنا كفيلة بها ....قرأتها وكتبتها ولا أظننى بحاجة لأن تكون هى كل تخصصى، ولكن الإنجليزية؟ الإنجليزية عقدة المصريين ....سبعون عامًا من الاحتلال لم تفلح فى أن تجعل المصريين يتقنوا الإنجليزية!! سبعون عامًا لم تجعل المصريين العاديين الذين تعلموا فى مدارس الحكومة يفرقون فى النطق بين البى الثقيلة والبى الخفيفة!! أفلحت فرنسا فى أن تجعل الجزائريين والتونسيين ينطقون بالفرنسية وأفلحت أسبانيا فى أن تنطق أمريكا اللاتينية بالأسبانية ....و لم يفلح الأنجليز معنا!!! هل هذه خيبة من جانبنا أم من جانبهم؟ أم هى أصالة و تمسك بالجذور والموقع المتميز؟! اسألوا دكتور جمال حمدان!!
ألتحق إذن بالآداب وأتقن الأنجليزية وأتفوق لأعين معيدة ثم مدرسة وأستاذة فأعوض فشلى فى دخول السياسة والاقتصاد ...
أخيرًا هبطت الطائرة فى مطار هيثرو ....أحمد الله أننى قد حصلت مسبقًا على تأشيرة بريطانيا وأيضًا بقية دول أوروبا لولا ذلك لكنت الآن حبيسة فى نيويورك ..
وقفت أمام ظابط الجوازات ؛ أعطانى الختم الشهير ...ستة أشهر للإقامة فى بريطانيا ..تكفينى وزيادة ....حتى لو لم توافق الجامعة. وجودى فى بريطانيا الآن مناسب جدًا.

كان يمكننى أن أقيم فى فندق فاخر وأستمتع بالإقامة على حالتى الجديدة، ولكنى فضلت أن

أعمل حسابًا للزمن ....فأنا لست على ثقة من موافقة الجامعة؛ لقد كان مجرد عرضكما أننى بالفعل تأخرت عليهم فى الرد. لذا فسيكون اعتمادى الأساسى على مدخراتى الدولارية. ولهذا فضلت أن أقيم فى هذا الفندق المتواضع من نوعية "البد اند بريكفاست " أى غرفة مع إفطار. اخترت المنطقة القريبة من محطة قطارات لندن؛ فى بادينجتون . أحب دائمًا أن أكون على مقربة من وسائل المواصلات ...هل لهذا صلة بكون أبى سائق قطار؟

فى مصر نشأت وترعرعت فى الشرابية وهى منطقة شعبية وقريبة من محطة رمسيس.

هل لهذا أيضًا علاقة باختيارى لهذا الفندق؟

أخرجت ملابسى من الحقيبة ووضعتها فى الدولاب الصغير الذى وفرته لى مسز فلورانس صاحبة الفندق بعد أن علمت أننى أنوى الإقامة لفترة طويلة.

شعرت بسعادة الأطفال ليلة العيد وأنا أرص ملابسى الجديدة فى الدولاب وبسعادة أكبروأنا أضبط منبه الموبايل الجديد- الذى اشتريته فى نيويورك ولم أضع له شريحة بريطانية بعد-على الثامنة صباحًا لألحق بالإفطار!!

عرفت نفسى لمسز فلورانس على أننى فردوس الوراق ...روائية من القاهرة.لم أكن أستطيع أن أكذب فى الاسم لأنها حتمًا سترى جواز سفرى وتسجل بياناته عندها. كما أننى لم أكذب فى كونى روائية؛ فأنا روائية حتى وإن لم أنشر أى رواية حتى الآن!!

قلت لمسز فلورانس أننى قد جئت إلى لندن لأوفر لنفسى جوًا مناسبًا وأكتب رواية تدور أحداثها بين القاهرة ولندن فى الخمسينات. ولم أنفِ كونى أعمل فى كلية الآداب كما هو

مدون فى جواز سفرى.

بدت لى مسز فلورانس طيبة وودودة للغاية وشعرت بالألفة معها من أول ليلة.

نمتبعمق وبدون أحلام تذكر وبدون كالميبام!!

استيقظت فى قمة النشاط والبهجة ونزلت إلى حيث أعدت لى مسز فلورانس طعام الإفطار المكون من البيض والكورن فليكس وعصير البرتقال والمربى ...تناولته بشهية. صعدت مرة أخرى إلى غرفتى وارتديت الجينس الضيق الجميل وتى شرت أحمر خطير.وأخذت معى جاكت جلدى أنيق ....نزلت الشارع و استخدمت مترو الأنفاق. بدأت جولتى من اكسفورد ستريت. لم أترك محلًا إلا ودخلته...اشتريت مظلة؛ فأنا أعرف تقلب طقس لندن. ....اشتريت بلوفرين برقبة والأهم من ذلك شريحة بريطانية! تناولت بطاطس وسمك فى مطعم متواضع ثم استمتعت بآيس كريم لندن الشهير. عدت للفندق فى الخامسة مساءً منهكة ولكن سعيدة .

صنعت لنفسى كوب كبير من النسكافيه وجلست فى سريرى ارتشف منه و بجانبى رزمة كبيرة من الورق الأبيض ....لم أدخن بالرغم من اشتياقى لذلك؛ لأن مسز فلورانس طلبت منى ألا أدخن فى الغرفة بتاتًا ..نظرت إلى رزمة الورق وتسائلت: هل يمكننى الآن أن أبدأ فى الكتابة ....عمومًا أنا دائمًا فى حالة كتابة ...كتابة المذاكرة، كتابة الدروس، كتابة المؤتمرات ....كتابة يومياتى وخواطرى ...والأهم من ذلك الكتابة الأدبية ..كتبت الشعر والزجل فى ابتدائى وإعدادى وثانوى و أقلعت عنهما فى الجامعة ....لم يعجبنى شعرى

..إنه تقليدى ....من الممكن أن يكتبه أى شخص. وجدت نفسى أكثر فى الرواية ...

أحسست أن هذا سيكون مجالى .

فى الإعدادية نظمت الجمعية الأدبية بالمدرسة مسابقة للقصة القصيرة. فقط زميلتى نادية حمزة وأنا اشتركنا فى المسابقة. قلت لنفسى يجب أن أفوز ...نادية زميلتى وهى متفوقة أيضًا وعلاقتى بها جيدة، ولكنى أختلف معها حتى النخاع ....كنت أسميها وقتها وبعد ذلك بالنمطية!!فتاة عادية جدًا ...تفكر كما يفكر الآلاف من الفتيات غيرها .....النجاح فدخول الجامعة ثم البحث عن عريس وإنجاب الأطفال ....لم أجد لديها فكر أوتميز أوتوهج!

خضت المسابقة بقصة كتبتها فى يومين! عن طفلة فى السادسة من عمرها رأيتها من شرفة منزلنا فى الشرابية. الطفلة أتت فى زيارة من الصعيد لأقاربها فى القاهرة. وكانت تلهو فى الشارع مع أقرانها، و لكن ملابسها المختلفة والطرحة التى تغطى رأسها فى هذه السن المبكرة كانت تعوقها عن الاستمتاع باللعب والجرى. أحسست بمعاناتها وهى تحاول أن تلعب و تجارى زميلاتها. وفى نفس الوقت تحاول أن تحتفظ بالطرحة على رأسها!

كتبت القصة ووصفت المعاناة وأنهيت الحكاية من عندى بأن الطفلة تمردت وخلعت طرحتها فنالت بعد ذلك علقة ساخنة من والدها ولكنها باتت سعيدة!! أما نادية حمزة فقد كتبت عن مأساة عائلة فقيرة كثيرة العيال وراحت تسهب فى وصف القهر والمعاناة الذى عاشته هذه الأسرة التى صبرت وصبرت فكافأها الله فى ليلة القدر بأن أرسل لها رجلًا ثريًا على وشك الموت وأراد أن يقابل ربه بعمل كبير فأعطى الأسرة مبلغًا كبيرًا انصلحت به

أحوالها!!واضح أن صديقتى كانت متأثرة بالمسلسلات المصرية الرديئة التى تدمن مشاهدتها!! ولكن ما رأيكم فى أنها فازت بالجائزة الأولى!! وتم حجب الجائزة الثانية!! والله هذا ماحدث.قال أستاذ اللغة العربية فى حيثيات منح الحائزة لنادية حمزة: إن الطالبة أجادت وصف مشاعر الفقير المحتاج الذى يرى أمامه الآخرين يستمتعون بخيرات الله بينما هو وحده المحروم. كما أنها طرقت فى قصتها معنى التكافل الذى يجب أن يسودمجتمع يدين بالإسلام...أما ما قاله فى حيثيات رفض قصتى: أسلوب المتسابقة خالى تمامًا ممًا تعارف عليه الأدباء والنقاد فى التسلسل المنطقى و السرد الطبيعى ...كما أن فكرة القصة من الأساس تسخر من زى ونمط حياة مواطنين مصريين لا ذنب لهم إلا أنهم يعيشون فى الصعيد!!

أنا أسخر من الصعيد أيها الجاهل العتل. وأصلًا والدى ووالدتى من ملوى!! هل فهمت ما أرمى إليه؟ هل أنت تفهم أصلًا؟

لم يشفِ غليلى ويطفىء لظى غيظى إلا ما قالته لى أبلة انتصار مدرسة الدراسات الاجتماعية: لقد قرأت قصتك، أسلوبك جديد وفكرتك ممتازة ولو أن هذه المسابقة كانت فى مكان آخر لفزت بالجائزة دون منازع...ولكن فى مدرسة حكومية.. المعايير مختلفة!! لم تكن هذه تجربتى الفاشلة الوحيدة مع الكتابة .....استمرت هذه التجربة خلال دراستى فى الجامعة و إلى أن حصلت على الدكتوراة ...عملت على أن يظل أسلوبى كما هو: البساطة والسرعة. أعطى القارىء أكبر قدر من المعلومات فى سطور قليلة وبلا تطويل ...نادرًا ما ألجأ إلى الوصف الدقيق لملامح شخصية فقط أكتفى بكلمة أو

كلمتين تعطى انطباعًا عامًا ....كذلك عملت على أن تكون أفكارى جديدة غير مستهلكة وأن أكون واضحة. الفن الواضح السهل فى نظرى هو فن الألفية الثالثة!!!

يتعمد بعض الكتاب وبعض الكاتبات هذه الأيام أن يكتبوا رواياتهم وقصصهم وبها الكثير من الغموض والألفاظ الغريبة والمتقعرة. وللأسف يجدون بعض النقاد يتشدقون بعبقريتهم و رؤيتهم المستقبلية الفذة!! تمامًا مثلما حدث فى السينما مع ذلك المخرج العبقرى الذى لا يستطيع أحد أن ينكر تميزه ونبوغه، ولكنه كان يرى أنه لا بد أن يتعب المشاهد ويجعله يركز مائة فى المائة أثناء العرض؛ حتى يستطيع أن يفهم والغريب أنه استطاع بذلك أن يحصل على إعجاب النقاد وبعض المشاهدين، ولكن الأغرب أنه فى آخر أيامه عاد إلى الفيلم المفهوم. فهل كان هذا اعتذارًا منه أم احتياجات السوق؟؟؟

أصبت بالإحباط مرة تلو الأخرى من آراء زملائى و زميلاتى ...القليل منهم شجعنى وأثنى علىّ. ولولا أننى كنت أرسل ببعض رواياتى إلى منتديات خارجية ومحافل دولية، وكانت تحوذ الإعجاب لكنت قد امتنعت تمامًا عن الكتابة قهرًا وإحباطًا!! ثقتى بنفسى لم تهتز لأنه عن طريق رواياتى غير المنشورة هذه والتى قرأها الغرب مترجمة أوعن طريق بعض القراء الغربيين اللذين تناقلوها، تعرفت على جامعات نيويورك ولندن وهولندا ووجهوا إلى الدعوات لأحاضر هناك .. بينما تظن الجامعة فى مصر أن هذه الدعوات موجهة إلىّ لأننى عضو هيئة تدريس بها!! و هذا أبعد ما يكون عن الحقيقة. لقد

وجهوا إليّ هذه الدعوات بسبب كتاباتى المتميزة فى مواضيع تهم الدنيا كلها وبسبب إتقاني للغتين؛ العربية قبل الإنجليزية ...

عقدتى إذن من الرواية جعلتنى أقدم نفسى لمسز فلورانس على أننى روائية وعقدتى من العلوم السياسية جعلتنى أقدم نفسى لمسز هيلين على أننى أستاذة السياسة ...أنا مجموعة من العقد تمشى على قدمين!!

فاتحت مسز فلورانس فى مسألة عملى لديها. قالت: أنها تتمنى ذلك إلا أنها تستمتع بإعداد الإفطار لنزلائها بنفسها وتستعين بمونيكا لتنظيف الغرف؛لذا فهى ليست بحاجة لعمالة جديدة، ولكنها وعدتنى بأن تتحدث مع صديق لها يمتلك مطعمًا للمأكولات الشرقية قد يكون بحاجة لمن يعمل عنده.

بررت لها بحثى عن عمل بأننى قد أمكث لفترة طويلة فى لندن وأخشى أن تنفد مدخراتى، كما أننى بحاجة للعمل لألتقى بشخصيات وأمر بأحداث ربما توقد شعلة الإلهام فى ذهنى فانتهى من الرواية فى وقت مناسب.

الحقيقة أنا لا أعلم بالضبط لماذا فكرت فى أن أعمل و فى مهنة غير مهنتى إلى أن تأتينى موافقة الجامعة ....ربما لأستعيد ذكرياتى فى العمل مع الدراسة؟ تلك الفترة الرائعة من عمرى ...عندما كنت أشعر أننى أملك إرادتى وأقف أمام العاصفة بصلابة الصخور!!

كان يجب عليّ أن أعمل أثناء الدراسة؛ أولًا: لأننى كنت على اعتقاد أن طاقتى ومواهبى أكبر بكثير من أن أكون طالبة فى كلية عادية أستطيع أن أنجح فيها بل وأتفوق بمجهود

مذاكرة ساعتين يوميًا. ثانيًا: اضطرنى والدى أن يكون لى رد فعل - وأنا الشقيقة الكبرى – تجاه رغبة غريبة انتابته فجاة ...يبدو أنه اكتفى بأن تكون له ابنة واحدة "فالحة فى التعليم" وتدخل الجامعة واعتقد أنه بذلك قد أدى رسالته فى الحياة على أكمل وجه وأنه قد حان الوقت ليستريح!! نسى أو تناسى أن له بنة أخرى؛ شقيقتى وذكرين ...توأم! لست أدرى- وإلى الآن - لماذا تصور أن مهمته قد انتهت وأن شخص آخر عليه أن يكمل المشوار؟

لم يكن والدى من تلك النوعية من الرجال التى تهمل بيتها، أو لها حياة أخرى خارج المنزل - باستثناء تدخين الحشيش مع زملائه مساء كل يوم خميس - أو من النوع الذى يتنصل من مسئولياته. ولذا فأنا أتعجب وأتسائل ما الذى حدث له بمجرد أن نجحت وحصلت على مجموع كبير ودخلت الجامعة ....

هل " استخسر" فتّأن أدخل الجامعة؟

سمعته مرة يقول لأمى أنه كان يتمنى أن يكون "البكرى" ذكر ليعينه على المعيشة .... لا أستطيع أن ألومه على هذه المقولة فهو يتصرف ويتكلم من واقع البيئة التى نشأ فيها .

لم تكن شقيقتى إحسان مثلى؛ لم تكن متفوقة كانت بالكاد تنجح. وفى الإعدادية حصلت على مجموع ضعيف لا يمكنها من الالتحاق بالثانوى العام ....فكر والدى – وكأنه كان ينتظر ذلك بفارغ الصبر –فى مدرسة التمريض و الثانوى التجارى أوالصناعى.

والغريب أن إحسان البلهاء لم يكن عندها أى مانع من أن تساق كالنعجة إلى أى مصير يقودها

إليه والدها!!

وقفت أمامه يومها وقلت له: إن الناس تتطور والأجيال القادمة تسعى لأن تكون أفضل فى كل العائلات ....هاج وماج وتحجج بأنه لا يمكنه الإنفاق عليها فى المدارس الخاصة وأن استعداها للعلم قليل جدًا وستخذلنا ....أخبرته أننى متكفلة بها من الناحيتين: سأتكفل بنفقاتها فى المدرسة الثانوية الخاصة بالإضافة إلى رعايتها وتوجيهها من الناحية العلمية ...وقد كان ...كنت أذهب للكلية فى الصباح وأعود لتناول الغذاء ثم أذهب لمكتب الأستاذ الشرنوبى المحامى أكتب على الآلة الكاتبة وأنسخ له المذكرات وينتهى عملى عنده فى التاسعة مساءً، فأعطى دروسًا خاصة فى اللغة العربية والإنجليزية للمرحلة الإعدادية. بعدها أعود للمنزل وأتناول العشاء و"أحيانًا" أستذكر مدة ساعتين ثم أنام وهكذا دواليك. وفى الإجازة الصيفية أعمل بالإضافة إلى مكتب الأستاذ الشرنوبى فى محلات الطعام والوجبات السريعة الأمريكية الشهيرة. أحيانًا كـ "كاشيرة" وأحيانًا كمتلقية طلبات على التليفون.

استطعت أن أقهر التحدى!! والحقيقة أن تعبى لم يذهب سدى لأن إحسان لم تخذلنى ...فى سنوات النقل نجحت صحيح "بطلوع الروح"، ولكنها نجحت! وفى الثانوية العامة نجحت بمجموع متواضع أهلها للالتحاق بكلية الخدمة الاجتماعية ...لا بأس هى تعليم عالىوشهادة جامعية على أى حال!!

كانت سعادتى طاغية عندما أفلحت فى إنقاذ شقيقتى من مصير مظلم فى بلد مثل مصر: بلد شهادات ..على رأى عادل إمام!

و يبدو أن والدى قد "استحلى" الموضوع؛ فوجئت به يريد أن يفعل نفس الشىء مع التوأم حسن وحسين مع أنهما كانا أفضل من إحسان من ناحية التحصيل. استغل سذاجتهما ورغبتهما فى الحصول على المال المستقل فى أقرب وقت وحاول أن يقنعهما بأن يلتحقا بمدرسة لتعليم الميكانيكا تابعة لهيئة السكة الحديد وراح يزين لهما هذا الطريق ...طريق الصنعة التى يمكن أن يكسبوا من ورائها ذهبًا على حد تعبيره ..

وقفت له هذه المرة بعنف شديد وآسفة لاستخدام هذا اللفظ: "شرشحت له" وقلت له: بل سيكملان تعليمهما وسيلتحقا بالجامعة وسأتولى أنا كل شىء ...

كان هذا معناه أن أضاعف الجهد وبدلًا من عملين، ثلاثة، وأربعة ولا راحة إطلاقًا فى الإجازة الصيفية ....

لم أكن تعيسة، بل على العكس كنت أحس بكيانى وذاتى وأنا أعمل وأنجز.

ولم يخذلنى التوأم أيضًا!! حصلا على مجموع معقول جدًا والتحقا بكلية التجارة، وأنهيا دراستهما بها. وبمجرد أن انتهيا من الخدمة العسكرية سافرا للسعودية ولم نعد نراهما إلا كل عام أوعامين ...

لم أشعر أبدًا بالظلم أوبالقهر لأننى أنفقت على إخوتى وعلمتهم بينما والدى حى يرزق وبصحة جيدة ....المرة الأولى التى شعرت فيها بالقهر كانت عندما عدت ذات يوم من مشوار للتسوق و كنت وقتها معيدة بالجامعة ....عدت بأشياء أعجبتنى فاشتريتها لجهازى و كانت أمى رحمها الله قد توفيت. أخرجت الأشياء من الأكياس وعرضتها على والدى. أبدى إعجابه بها أولًا ثم أفرج عن ابتسامة صفراء وقال:

- شاطرة يا فردوس. أريد منك عندما تشترى شيئًا لنفسك أن تشترى مثله تمامًا لأختك إحسان!!

أحسست بالظلم والقهر والدونية ...لماذا يقول هذا؟ هل كتب على أن أستمر فى الإنفاق على إحسان حتى الموت. ألا يكفى أننى أنقذتها من الجهل؟ لماذا لا تعمل هى وتنفق على جهازها؟ إنها لا تفعل أى شىء منذ تخرجت سوى أن تجلس فى البيت وتنتقل من سرير إلى آخر وتشاهد مسلسلاتها الهابطة و تنتظر العريس!!! لماذا لا تعمل فى أى شىء حتى يأتيها تعيين القوى العاملة أوابن الحلال؟ هلأنا فقط المكتوب عليها أن تعمل؟ لماذا لم يطلب والدى من التوأم - وكانا وقتها فى منتصف مشوارهما الجامعى – أن يعملا فى الصيف أوبجانب الدراسة كما كنت أفعل؟ لماذا يتقبل شابان طول وعرض أن يمدا أيديهما لأختهما ليأخذا المصروف؟ أنا فى مثل عمرهما كنت أنفق على أسرة بأكملها!

حزنت وقتها، بل بكيت وحدى فى غرفتى، ولكن الغريب أننى بعد هذه الواقعة لم أتمرد بل إننى اشتريت لإحسان الكثير وساهمت فى جهازها بمبلغ كبير ...

تزوجت إحسان وأنجبت ثم جاءها خطاب القوى العاملة وتسلمت عملها ومن يومها وهى تنهى إجازة وتبدأ فى أخرى ....رعاية طفل، مرافقة زوج، رعاية والد!!!

قلت لنفسى: لماذا أقلب على نفسى المواجع؟ أنا الآن سعيدة بل سعيدة جدًا وهذا يكفى ...

صباح اليوم التالى أخذتنى مسز فلورانس إلى السيد ميشيل حداد صاحب محل المأكولات اللبنانية "الروشة" فى الشارع الرئيسى القريب ...رجل فى منتصف الخمسينات، أبيض، له كرش و شعر خفيف وشارب ضخم ...لزج بعض الشىء، ولكن يمكن تحمله .

شرحت له مسز فلورانس الوضع بهدوء. نظر إلىّ وقال بالعربية الشامية :

- تبدين كهانم محترمة ...لماذا تريدين هذا العمل؟ أرجو ألا تكون ورائك مشكلة، أنا غنى عن المشاكل..

- ليس ورائى أى مشاكل ....أنا متعلمة تعليم عالٍ ولكنك تعلم – كعربى مثلى – أن التعليم فى بلادنا لا يصنع ثروة، وأنا هنا لفترة قد تطول لذا يجب أن أعمل ...

- أنا اصدقك، ولكن هل تمانعين أن تعملى معنا فى المطبخ وبهذا تكونين بعيدة عن الأعين فلا يسألنى أحد عن تصريح عمل أو تأمينات أوخلافه؟

- ممتاز ...كنت سأطلب منك هذا ...

بكل همة ونشاط دخلت المطبخ و ارتديت المريلة ووضعت إيشارب على رأسى وبدأت العمل ...وجدت شابًا أسمر، طويل، مليح الوجه، هادىء الصوت ..ومن قبل أن يتكلم أدركت أنه مصرى....عرفنى بنفسه: ياسر محمدى ...بكالوريوس علوم جامعة عين شمس وهنا فى لندن منذ سنة ..

- أهلًا يا ياسر، بكالوريوس علوم بجد؟

- نعم بجد ...لم أحب أن أعمل كمدرس علوم فى مدرسة إعدادية فى مصر؛ لذا جئت إلى هنا لأكون نفسى ولأستطيع أن ألتحق بالدراسات العليا ...وأنت تبدين ...

- أعرف ما ستقول، أنا أبدو أكبر من أن أكون طالبة أو خريجة حديثة. أليس كذلك؟

- إطلاقًا لم أقصد ذلك. أنت زى الفل ولكنى أريد أن أقول أنك أفضل من أن تكونى هنا فى المطبخ. لماذا جعلك ميشيل الحمار تعملين فى المطبخ، كان يمكنه أن يوظفك فى الصالة الرئيسية؛ خدمة الزبائن ..

- أعذره، هو لا يريد المشاكل ...أنت تعلم؛ رأس المال جبان ..

- هل أكون متطفلًا إذا سألتك عن الظروف التى جعلتك تعملين هنا؟
- إطلاقًا ....ولكن هذه قصة طويلة أكيد سأحكيها لك ذات يوم ونحن نقشر البطاطس!!

اندمجت فى العمل بسرعة وكعادتى أثبتت وجودى خلال ساعات قليلة ...قشرت كمية كبيرة من البطاطس وتعجب ياسر من الشرائح الصغيرة التى أفلحت فى تكوينها بينما شرائحه أكثر سمكًا بكثير!!

ارتحت لياسر جدًا ومرت الساعات الثمانية بسرعة ... وما أسعدنى أكثر هو أن السيد ميشيل أعطانى راتب اليوم فى نهاية العمل ...عشرين جنيه إسترلينى! حصلت فى نيويورك على آلاف الدولارات، ولكن فرحتى اليوم بالعشرين إسترلينى أكبر بكثير

أحسست أن الزمان قد عاد للوراء ....عادت الأيام الجميلة ..

عدت للفندق مساءً منهكة، ولكن سعيدة!!

أكلت نصف الدجاجة مع الأرز بالكارى؛ عشائى الذى اشتريته من الطريق ...رحت أتصفح الجرائد الإنجليزية والأمريكية والمصرية التى اشتريتها ....قرأت فى جريدة أمريكية خبر مضحك يقول أن سبب سقوط الطائرة هو أن قائدها قرر الانتحار فى الجو والدليل على ذلك عبارة سمعوها فى الصندوق الأسود يقول فيها: أسلمت أمرى لله. فهمتها أنا على أنها: توكلت على الله ...ماشاء الله،وأمريكا يمكن أن تجعل الأبيض أسود والأسود أبيض. يمكنها أن تدعى أن الشمس تشرق من الغرب....سبحان الله.... إذا أراد شخص أن ينتحر فلماذا يقتل معه مائتى راكب؟ لماذا لا ينتحر بالسم أو يضع مسدس فى فمه ويطلقه، أو يلقى بنفسه من النافذة، أوحتى يولع فى نفسه بجاز!!

استيقظت صباح اليوم التالى مكتئبة بالرغم من حالة البهجة والتوهج التى كنت عليها بالأمس ...هكذا أنا ...معنوياتى يوم فى السماء ويوم فى الارض!!

كنت حزينة لأننى لا أعرف ما الذى يحدث فى مصر ...لو أن لى عين فى القاهرة لأصبحت المغامرة أجمل و أكثر إثارة ...

أنا لا أعرف الآن مقدار حزن بابا أو محمود أوإحسان ...ما رد فعل زملائى وزميلاتى بالجامعة ...ماذا كان وقع الخبر على جيفرسون؟....يا إلهى ...الكثير يفوتنى ..

تناولت إفطارى وانطلقت إلى المطعم ....أحسست أنّ ياسر قد اهتم بمظهره أكثر من الأمس ...ذقنه حليقة وبنطلون أنيق يبدو من تحت المريلة وكذلك القميص ..

يا خسارة يا ياسر لو أننى قد قابلتك قبل ذلك بعشر سنوات!!

أعرف أن بعد انتهاء دورتى الشهرية تكون رغبتى الحسية على أشدها!!وربما كان هذا هو سبب ما أحس به الآن مع ياسر ....هو شاب قوى وجذاب ومن النوع الذى يروق لى!

أنا وهو الآن فى المطبخ و الباب مغلق ....سرحت فى خيالات ....لا.. ينبغى أن أكون أكثر صراحة ...وأنا أقشر البطاطس تمنيت أن يلمس يدى ....لا لا سأكون أكثر صراحة.

تمنيت أن يأخذنى فى حضنه ...لا لا لا داعى للكذب، تمنيت أن أقيم معه علاقة كاملة!!

كما سبق أن ذكرت، علاقتى مع محمود طويلة ومعقدة ومتشابكة، و لكن إذا كان قد جاء ذكر الرغبة الحسية والعلاقة فيجب أن أقول شيئًا وبمنتهى الصراحة ....لا أجد أى غضاضة فى أن أنام مع محمود..نعم، أستكفى بالعلاقة معه وألتفت إلى عملى.. نعم ..أشعر

بالسعادة والارتواء الكامل معه لا لا لا .. تلك هى الحقيقة!!هل العيب فى محمود؟ لا أستطيع أن أقول ذلك إذاطبقنا المعايير العلمية. هل العيب فى أنا؟ لا أظن ....العيب فى اجتماعى أنا وهو معًا؟ هذا أغلب الظن!!

لم يكن محمود أول رجل فى حياتى ..حاتم هو بداية رحلتى مع الرجال بعد أن نضجت. لن أتحدث عن مغامراتى الصغيرة وأنا طفلة فى التاسعة أو العاشرة من عمرى، ولن أتحدث بالتفصيل عن بداية تعرفى على هذه الحاسة السحرية وتلك الغريزة الخالدة التى هى سبب بقاء البشرية ..فقط الآن تذكرت هذه الحادثة الصغيرة التى وقعت لى عندما صعدت سلم منزلنا ذات ليلة ...كنت فى الحادية عشرة من عمرى وجارنا إبراهيم فى الثالثة عشرة. كان خارجًا من شقتهم ...تقابلنا على السلم ....كنت أتحسس طريقى فى الظلام لأصل إلى شقتنا عندما وجدت نفسى فى "حضن" إبراهيم !! لا أظن أنه كان يقصد، ولكننا وبدون أن نشعر وجدنا أنفسنا نطيل هذا الحضن ....ضمنى بقوة، كان جسمه الرياضى أكبر من سنه، ضمنى أكثر، أحسست بنشوة عارمة ولا أعرف ماذا كان شعوره. أفلتت من يده ودخلت شقتنا ...علقت هذه الواقعة فى ذاكرتى طويلًا وعشت عليها سنين ...لم يحدث بينى وبين إبراهيم أى شىء بعد ذلك. وكان هو من الأدب فلم يتعرض لى بعد ذلك أبدًا ولم يلمح أبدًا ولو بنظرة!!

التحق إبراهيم بعد ذلك بالكلية الحربية وتخرج ظابطًا، ثم ترك المنطقة ولم أعد أراه ..

أردت أن أحكى هذه القصة لأن ياسر به شبه كبير من إبراهيم و أى دارس بسيط لعلم النفس يعرف أن الشىء بالشىء يُذكر ...طافت على السطح رغبتى الحسية عندما رأيت

من ذكرنى بأول من عرّفنى عليها!!

كان حاتم معيدًا فى كلية التجارة، انتهى لتوه من مناقشة رسالة الماجستير، وأنا كنت معيدة حديثة. كان هذا خلال العام الدراسى ١٩٨٤-١٩٨٥ التقينا فى مكتبة الجامعة. أعجبنى شكله و حسن هندامه وأدبه الجم ....لم أحبه من أول نظرة ولا هو، ولكن تقابلنا مرات بعد ذلك داخل الجامعة. أعجبنى فكره المتطور و نظرته للأمور بموضوعية والأهم منذلك نظرته للمرأة ...نظرة تدل على أن صاحبها إنسان متصالح مع نفسه، وشديد الثقة بها أما هو- فكما قال لى - فقد أعجب بنشاطى وذكائى وحضورى الطاغى فى أى مكان أتواجد فيه ....هكذا قال والله العظيم!!

تجرأ ذات يوم ودعانى للخروج فى أى مكان أحدده ....التقينا و صارحنى بحبه ....لن أنسى أبدًا تلك اللحظة. اللحظة التى تجعل أى فتاة تحلق بعيدًا فى الفضاء و تحس بأنوثتها وقدرها و ترى الدنيا من منظور مختلف تمامًا . تريثت ...و كأنثى ذكائها فوق المتوسط بكثير. لم أتسرع وأعلن له حتى مجرد ارتياحى لهذه المشاعر. فقط سكتت وابتسمت وجعلته هو يسترسل فى الكلام ...كان هذا اليوم من أيامى الرائعة التى لا يمكن أن أنساها.

عشت فترة قصيرة فى هذه السعادة الغامرة ....لم أفكر وقتها ولم يفكر حاتم فيما وراء المشهد؛ كنا فقط نفكر فى السعادة التى أصبحنا نعيش فيها ....كنت أكتشف كل يوم شيئًا جديدًا فيه. وكان هو يغوص فى أعماقى ويخرج منها بصفة جديدة تعجبه فى ....أحيانًا كان ينتقدنى وكذلك كنت أفعل ولم يحدث أن غضب أحد منا من ذلك. وفى اللحظة المناسبة صارحته بحبى، بل بحبى الشديد، وحتى لا أكذب أيضًا سمحت له أن يقبلنى!

سمحت له بذلك بعد أن صارحنى برغبته فى مقابلة والدى فى أقرب فرصة ...كنا فى السينما نشاهد فيلم"أوت أوف أفريكا" اقترب من وجهى ليسألنى عن كلمة وردت على لسان البطلة "ميريل ستريب" ولم يفهم معناها الحرفى المختلف عن المعنى المترجم على الشاشة، وبما أننى خريجة آداب إنجليزى فكان لابد أن يسألنى ....وجد شفتيه قريبة جدًا من شفتى، لم يشأ أن يفوت الفرصة؛ قبلنى وتركته يفعل و يسترسل فيها!! شعرت بنفس الإحساس الذى ذقته مع إبراهيم ابن الثالثة عشرة وإن كان أعمق وألذ ... أول وأجمل قبلة فى حياتى ....ولكن كما قلت، لم نكن نرى ما وراء المشهد، أو بالأصح أنا كنت أرى، ولكنى تصنعت العمى حتى لا أحرم من السعادة ....أنا كنت على علم أن عائلة حاتم كبيرة ...والده على الأقل لم يكن سائق قطار ولم يكن يسكن فى الشرابية، ولكن فى مصر الجديدة! هو لم يستفسر كثيرًا عنى. اكتفى بما قلته له من أن والدى يعمل فى وزارة النقل بدون أى إضافة وهو لم يزد عن ذلك؛ لأنه كان يرى أمامه فتاة أنيقة تختار ملابسها وألفاظها بعناية وتجيد الإنجليزية وتعمل كمعيدة فى الجامعة. لم يدرك أن ما يراه أمامه هو القشرة الخارجية ...كان لا بد لى أن أخبره. هذا ما يفرضه علىّ العقل والأصول .

- حاتم ....هناك شىء يجب أن تعرفه عنى قبل أن تخطو أول خطوة ...الحقيقة أن والدى سائق قطار ونحن نعيش فى منطقة بسيطة جدًا فى الشرابية. صحيح أننى وإخوتى من أصحاب المؤهلات الجامعية، ولكن هذا لا يغير من الأمر شيء. والدى سائق قطار يعنى رجل على "قد حاله"..

لم يكن حاتم فى حاجة لأن يتكلم ...ظهرت نتيجة كلامى على وحهه بوضوح ...ولكن بما

أنه إنسان مهذب وصاحب أخلاق عالية. لم يشأ أن يجرحنى فقال:

- لا أعتقد أن هذا يغير من الأمر شيء ...أرجو أن تحددى موعد مع والدك لأحضر مع أهلى إلى منزلكم ..

- معلهش يا حاتم. أرجو أن تأتى إلينا وحدك وتتكلم مع والدى وبعد ذلك يمكنك أن تاتى مع أهلك أولا تفعل ..

- ولماذا؟

- معلهش، خذنى على قد عقلى، تعالى وقابل والدى وحدك ..

اجتهدت بقدر الإمكان أن أجمل بيتنا فتصبح الصورة أفضل قليلًا. ولكن كيف أتصرف فى حارتنا أوشارعنا الصغير؟ ماذا أفعل فى مدخل العمارة؟

حضر حاتم فى الموعد وكان أبى فى انتظاره. بالكاد استطعت أن أقنع بابًا أن يرتدى بذلة الأفراح الأنيقة التى اشتريتها له ليرتديها يوم خطبة إحسان، وبالكاد استطعت أن أقنعه أن يتجنب الكلام الكثير فانا أعرفه؛ إذا انطلق فى الكلام فلن يسكت!! والذى يتكلم كثيرًا يخطىء كثيرًا خاصة إذا كان غير متعلم مثل أبى ..حاولت أن أقتنص من حاتم نظرة أو إيماءة تدل على اشمئزازه من منزلنا أو نفوره من أبى ولكنه غلبنى ...غلبنى بذوقه وأدبه الجم...لم يبدو عليه شيء من هذا، كان مبتسمًا ولطيفًا ....انتهى اللقاء بعبارة جميلة ودبلوماسية قالها أبى، ربما هى أجمل عبارة قالها فى حياته: لقد شرفتنا يابنى بزيارتك ونطمع أن نتشرف أكثر بزيارة الوالد والوالدة قريبًا ...

ولكن حاتم لم يأتِ أبدًا!!

طلب مقابلتى بعد هذه الزيارة بأسبوع ..قابلنى وهو متجهم وحزين. لأول مرة أراه كذلك؛

أخبرنى أنه قد فوجىء مفاجأة العمر كله عندما رفض والداه فكرة الزواج، فكرة الزواج الآن عمومًا وليس الزواج منى أنا شخصيًا، كما قال ....هو شديد الأدب كما قلت – لأسباب كثيرة لم يذكرها، وأنه لكى يكون صادقًا مع نفسه ومعى يجب أن يعترف أنه أضعف من أن يقوم بهذه الخطوة بغير رضا أهله ...

و خرج حاتم من حياتى!!

أقسم بالله العظيم أننى لم أشعر بأى مشاعر سلبية تجاه أبى أو عائلتى أو الحى الذى أسكن فيه بعد هذه الواقعة، بل على العكس فى هذا اليوم بالذات عدت محطمة إلى المنزل وقبلت يد والدى و أخبرته بما حدث ...فهم بالطبع سبب الرفض. صمت طويلًا قبل أن يقول: هو الخسران!

بدأت مع ياسر فى تقشير البطاطس والجزر. دردشنا فى كل المواضيع.حكى لى بالتفصيل عن حياته، عن أهله و دراسته وحبيبته التى تركها لأنه لا يستطيع أن يتزوجها. حكى لى عن أحلامه ...لا حظت أن لديه قدر بسيط من الثقافة العامة إلا أنه ليس رافضا للتعلم و يصغى جيدا. كان يستمع إلى وأنا أحدثه عن الأدب والشعر والرواية وأيضًا السياسة فى فترة الراحة دعانى إلى كوب من النسكافيه فى الكافيتريا الكائنة على ناصية الشارع دخنا السجائر باستمتاع فى الطريق!

حاول بقدر الإمكان أن يعرف منى أى معلومة عمن أكون ...ما هى دراستى؟ ولماذا أنا هنا؟ ولكنى كنت أتهرب من الإجابة وأستمتع بحيرته! قلت له: صدقنى يا ياسر ستعرف كل شىء فى الوقت المناسب ولم يفهم هو معنى أن تخفى امراة حقيقتها؟

الحقيقة أننى كنت أحاول أن أبحث لنفسى عن شخصية، عن كينونة أقدم نفسى له بها ..

أصبحت كالمجرم الذى يحوم حول مكان جريمته، يوميًا أقرأ الجرائد وأستمع إلى نشرات الأخبار؛ لعلنى أعرف أخبار جديدة عن حادث الطائرة ....سمعت عن خلافات عمن سيقوم بدفع تعويضات الحادث ....تعويضات؟ لم يخطر هذا ببالى ...إذن فمن الممكن أن يحصل محمود أو بابا على تعويض كبير عن وفاتى!! ولكنى عرفت أيضًا أن هذا يستلزم وجود أدلة ووثائق ...أى أن الموضوع ليس بهذه السهولة ...أحسست بالعجز لأننى لا أستطيع أن أعرف الموقف فى عائلتى الآن ....قررت أن أقوم بخطوة لعلها تعطى لى فكرة ولو بسيطة عن الوضع فى القاهرة ..

ذهبت إلى كابينة تليفون عمومى وضعت العملات واتصلت برقم منزلنا وقبل أن يرد محمود و ضعت منديل على فمى وسددت أنفى وتكلمت بلكنة إنجليزية صرفة ..

- مساء الخير؟ هل يمكننى أن أتكلم مع الدكتورة فردوس الوراق، أنا أستاذة فى جامعة أكسفورد...

رد محمود باقتضاب و بلغة أنجليزية ركيكة:

- الدكتورة فردوس توفيت فى حادث سقوط الطائرة!!

أسقط فى يدى، فلأول مرة أسمع نبأ وفاتى من خارجى!!

كان يجب أن أندمج فى الدور لأنهى المكالمة ..

-أووه ..أنا آسفة ...يا له من خبر مشئوم. لا أكاد أصدق نفسى ...أنا آسفة. أعزيك أعزيك بشدة... باى .

إذن فالموقف فى مصر واضح. أنا مت!!

طمرت فيك العشرة يا محمود. يبدو أنه حزين، أعرف صوته عندما يكون حزينًا ..

أراحتنى هذه الخطوة كثيرًا ...

عدت إلى الفندق ومارست طقوسى اليومية ثم أسلمت نفسى لنوم عميق .

رأيت فيما يرى النائم طيف أمى. أمى وهى شابة وصحيحة وليست أمى الهزيلة الشاحبة فى أيامها الأخيرة. لم تكن تتكلم أو تأتى بفعل ما، ولكنها كانت فى خلفية الحلم بل كل أحلام تلك الليلة ...أمى الحب الصادق الحقيقى ...الوحيدة - كما قلت - التى لم أكن لأقوم بمغامرتى لو كانت حية ...كانت ستنهار لو علمت بوفاتى وبهذه الطريقة! أمى هذا الكائن الجميل الرقيق ....كانت جميلة وكان هذا اسمها أيضًا! لولا جمال أمى لما تزوجت أنا أوإحسان!!لأن والدى لم يكن وسيمًا بالمرة ...كان مقبول الشكل بلا شك، ولكن المتأمل فى تقاطيعهسيكتشف كبر حجم الأنف والشفتين!! فسبحان الله الذى مزج بين جينات تقاطيع أبى وأمى وخلق منها مزيجًا معقولًا، هو خلقنى أنا وإحسان والتوأم!! بل إن إحسان – وهى أجمل منى بلا شك – لم تأخذ- من حسن حظها- أى شىء من بابا!!

كانت أمى رقيقة ووديعة ومسالمة للغاية وهذا ماكان يضايقنى منها؛ المهادنة والقبول بالأمر الواقع و الطاعة الغريبة الغير مبررة لوالدى فى كل الأمور، و فى أمور لا يمكن لأى

زوجة أن تتحملها أوتطيع زوجها فيها ....مهما كان حسن وجمال هذا الزوج!

حكت لى ذات مرة أن يوم صباحيتها طلب منها والدى أن تصنع له كوبًا من الشاي. تلكأت قليلًا ....أرادت أن تبدو كعروس وتتدلل كعروس. فما كان من أبى إلا أن قذفها بطفاية السجائر!!!

يومها لم أتصور أن أبى يمكن أن يفعل ذلك. لا يبدو عليه هذا العنف، ولكنها الحقيقة ...لم أتعجب من تصرف أبى بقدر تعجبى واستنكارى من رد فعل أمى ...كيف تقبل على نفسها ذلك؟ لماذا لم تدخل غرفتها وتغلق على نفسها الباب بالمفتاح وتتمنع على هذا الرجل حتى يعتذر ويتعلم الأدب؟

تفانت أمى فى خدمتنا حتى آخر لحظة ...وتحملت معنا كل المعاناة. راقبتنا فى مذاكرتنا وهى الأمية! تعلمت الخياطة على كبر لتوفر أجرة التفصيل. لم أسمعها تشكو أبدًا.

..يحضر والدى فى المساء و لا بد أن يجد الطعام الساخن ...و تكون هى قد أنهكت تمامًا من العمل المنزلى، ولكن لا يعفيها ذلك من أداء الواجب المنزلى اليومى مع أبى!!!أقسم بالله واجب يومى ...لم يكن أبى يتنازل أبدًا عن هذا الحق مهما كانت الظروف!! لا تسألونى كيف كنت أعرف؟ ..كان هذا واضحًا جدًا بالنسبة لطفلة ذكائها فوق المعدل: إغلاق باب غرفتهما بالمفتاح، صوت صرير السرير المتتابع، خروج والدى بعد ذلك بالفانلة والكيلوت إلى الحمام ثم صوت انسياب ماء الدش ....طقوس يومية فتحت ذهنى مبكرًا على هذا العالم السرى و أنا لم أبلغ الحلم بعد!!

إحسان أختى لم تعرف كيف يجىء الأطفال بالضبط إلا فى الثانوية العامة!

بعد تخرجى من الجامعة – الأولى بلا منازع طوال السنوات الأربع– وبعد تعيينى معيدة بالكلية؛ لاحظت ذات يوم وأنا أقوم بـ "تلييف" ظهر أمى فى الحمام وجود نتوء واضح جدًا فى ثديها الأيمن. أسقط فى يدى. سألتها عنه فأجابت بأنه موجود منذ وقت طويل وأنه ربما يكون "حيل" أصبت بالهلع ولعنت فى سرى الجهل و اللامبالاة...هى لم تهتم، "ماشى"، ولكن هذا الذى يعتصر ثديها كل يوم، ألم يلفت نظره هذا الوحش الكامن فيه ....لقد اكتشفته أنا من نظرة واحدة ....يا إلهى ...

مساء اليوم التالى أخذتها إلى أكبر جراح أورام فى القاهرة...رغم قسوته الظاهرة إلا أننى أحسست أنه تعاطف جدًا مع المسكينة ...طمأنها ثم انفرد بى وأخبرنى أنه غير متفائل، تأكد كلامه بالأشعة والتحاليل ....عاشت خمسة أشهر بعد هذا اليوم. توفيت بعد أن وصل سرطان ثديها إلى الكبد ..

لم أستطع النوم بعد الحلم الذى ظهر فيه طيف أمى ...صنعت لنفسى كوب نسكافيه ومع أول رشفة تذكرت ياسر ...ما الذى يمكن أن تكون عليه علاقتنا. المسكين لا يعرف فارق السن بيننا. هولا يزال صغيرًا بلا تجارب. غره شعرى القصير الناعم والعينان الخضروان. يظننى فى مثل عمره أوأكبر قليلًا ...هل أخبره بالحقيقة؟ ولكن لماذا أحرم نفسى من هذا الإحساس الرائع؛ إحساس أن هناك من يهتم بى ويرانى جميلة وصانعة البهجة ليومه - هكذا قال لى – لماذا لا أعيش هذا الإحساس لفترة أطول؟ سأخبره بالحقيقة تدريجيًا. أولًا: سأخبره عن عمرى ثم سأخبره باسمى الحقيقى ....لقد أخبرت السيد ميشيل أن اسمى

المتداول هو دينا. لماذا دينا؟ لست أدرى.سأبحث فى أعماقى وفى النهاية وقبل أن أغادر المطعم نهائيًا سأخبره من أنا بالظبط، لكن بأى حال من الأحوال لن أخبره أننى ميتة! سيعتبرنى مجنونة أوعلى الأقل غريبة الأطوار ....الكثيرون يعتبرونى غريبة الأطوار!

انتهيت من النسكافيه. ارتديت ملابسى بسرعة وتوجهت لتناول الإفطار – ضرورى جدًا الإفطار. أولًا: لأنى أدفع ثمنه. وثانيًا: لأنه يجعلنى أصمد حتى الساعة الخامسة مساءً– بدأنا فى تقشير البطاطس وفى الدردشة. بدأ كلام ياسر يأخذ منحنى جديد؛ لم يعد الآن مجرد فضفضة وكلام عن الماضى والحنين إلى مصر ...لا ..أصبح من نوعية: أصبح لاستيقاظى فى النهار معنى ....لم يعد المطعم مكانًا يثير الشجونويبعث على الاكتئاب وهكذا ...بدأت أحس بالخطر.

فى منتصف النهار، فوجئت بالسيد ميشيل يدخل المطبخ وينظر إلىّ من قمة رأسى إلى أخمص قدمى ثم قال: مدام دينا ....أريد منك خدمة. بياتريس لم تحضر اليوم؛ اعتذرت لمرضها والمطعم اليوم مزدحم جدًا. أريد منك أن تخرجى للصالة الرئيسية وتقدمى الطعام للزبائن ....آسف أنا مضطر ...

لم أتعود أن أرفض أى تكليف إذا كان مناسبًا لى ..
- حاضر يا مستر ميشيل.
-خذى، ارتدى هذا واسبقينى إلى الكاونتر الرئيسى ..

ارتديت مريلة تقديم الطعام وودعت ياسر بابتسامة رد عليها بابتسامة أعرض ثم توجهت

للصالة الرئيسية.

كان العمل جديدًا بالنسبة لى ...عملت فى مهن عديدة، ولكن هذه هى أول مرة أقدم الطلبات للزبائن، مع ذلك لم أرتبك ومر اليوم على خير ...فى اليوم التالى غابت بياتريس أيضًا فكان من الطبيعى أن أستمر فى العمل بالصالة الرئيسية ....أحسست أن ياسر يفتقدنى، صرح هو لى بذلك فيما بعد ...

كان على أن أقدم طلبات لزبونين؛ رجلين وقورين يبدوان من تونس أوالجزائر أوالعراق لم أدرك وقتها ...وعندما كنت أقوم بوضع الطلبات على المائدة كان أحدهما يقول للآخر بلهجة بالكاد استطعت أن أفهمها:

- يا سيدى الفاضل ...تأثير الثقافة الغربية على الأدب العربى قوى جدًا ...خذ عندك ..هذه الرواية لسيمون دى بوفوار تكاد تكون مطابقة لرواية "عبد القدوس" "لا أنام" وعندى أمثلة أخرى كثيرة ..

- عفوا؟ سيمون دى بوفوار؟ لا أظن أنها صاحبة الرواية المقصودة، ولكنى لا أتذكر الآن اسم المؤلفة الأخرى ....ولكنها بالتأكيد ليست دى بوفوار ..

- لا لا أنا متأكد، هى دى بوفوار ..

- يا سيدى لا ...بعد قليل سأتذكر اسم الأخرى ..

لم أستطع أن أسكت. كان لا بد لى أن أتدخل فى الحوار؛ هذا صميم تخصصى ولا يمكن أن أكتم علمًا فى صدرى. خفت قليلًا من ردة فعلهما أوردة فعل ميشيل، ولكن لابد أن أتكلم:

- معذرة لتدخلى فى الحديث ...الرواية المقصودة اسمها: صباح الخير أيها الحزن – نطقتها بالفرنسية ثم ترجمتها للعربية –و المؤلفة هى فرانسواز ساجان. ألفت الرواية وهى تقريبًا فى السابعة عشرة. والرواية بالفعل بها تشابه كبير مع رواية الأستاذ إحسان عبد القدوس والتى تم تحويلها إلى فيلم سينمائى كبير بطولة عمر الشريف وفاتن حمامة وعماد حمدى وهند رستم ومريم فخر الدين ويحيى شاهين....آسفة مرة أخرى لتدخلى فى الحديث..

لم أتوقع رد الفعل هذا من الرجلين ...فغرا فاهما و نظرا إلى بتمعن، ثم قال الذى يبدو أكبر سنًا منهما :

- آنستى أوسيدتى هل أنت جديدة فى هذا المطعم؟
- نعم سيدى .
- هل لى أن أعرف المناسبة التى جعلتك تعرفين هذه المعلومة . أنت مصرية أليس كذلك؟

- نعم أنا مصرية. خريجة كلية الآداب قسم اللغة الأنجليزية ولى اهتمام خاص جدًا بالأدب و لا سيما الرواية ..

- ما شاء الله ..ولكن ما الذى جعلك تعملين هنا ...هل تدرسين مثلًا وتعملين لتنفقى على دراستك؟

- شىء من هذا القبيل، إنها قصة طويلة وليس هنا المجال لروايتها ..

- الحقيقة أننا تشرفنا بمعرفتك. هل تعرفين من نحن؟

- لا والله لم يحدث لى هذا الشرف ..

- أنا اسمى سليمان جابر وهذا صديقى العزيز الدكتور فهيم مرزوق، نحن من العراق ولنا اهتمام كبير بالأدب العربى. ويشرفنا ويسعدنا أن تزورينافى المنتدى الذى نلتقى فيه كل ثلاثاء ..

- يسعدنى ذلك، ولكن لى طلب صغير وهو أن أعرف من بالضبط اللذين يحضرون هذا اللقاء وجنسياتهم ..

- هم كثر؛ بعضهم أدباء بالفعل ولهم أعمال منشورة وبعضهم هاوى ...سوريون ومصريون ولبنانيون ويمنيون ومغاربة ...اطمئنى اطمئنى لن يجبرك أحد على التطبيع ولا يوجد اسرائيليون!! واطمئنى أيضًا لست – وكذلك صديقى – كهل مراهق أعجبنى لون عينيك ولهجتك المصرية المحببة وأريد أن أستدرجك....أليس كذلك يا فهيم؟ ها ها

- العفو يا فندم ...فقط كنت أريد معرفة طبيعة المكان ...

- خلاص ...نحن فى انتظارك هناك الثلاثاء القادم بعد انتهاء دوامك هنا وها هو كارت بالعنوان. وشكرًا يا ....

- دينا ....دينا الصواف ...

لم يلحظ السيد ميشيل ماحدث على المائدة والحمد لله. أخذت الكارت وخبأته فى الأمان...بين صدرى والمشد!!

دخلت المطبخ لأخذ طلبات لزبائن آخرين ...كنت فى سعادة لا توصف لا أدرى لماذا على وجه التحديد. هل لمجرد أننى رأيت ناس تهتم بالأدب و دار بينى وبينهم حوار حقيقى. هل لأننى قررت أن أزور المنتدى وأن أتعرف على الموجودين بصفتى الجرسونة الهاوية للأدب، و ليس أستاذة الأدب صاحبة الروايات الست، والخمسة وعشرين قصة قصيرة؟ هل

أحيانًا نحب أن نرى حياتنا من خارجها لتكون الصورة أوضح وربما أجمل؟

فى نهاية اليوم علمت من الأستاذ ميشيل أن السيد سليمان جابر قد ترك لى بقشيشًا كبيرًا:

عشرين إسترلينى!! مرتب يوم كامل! سأضع هذه الورقة فى برواز لأتذكر هذا اليوم

التاريخى إلى الأبد..

عدت إلى الفندق ماشية مع ياسر، حكيت له الواقعة و عزمته على آيس كريم بمناسبة

العشرين إسترلينى ...فوجئت به يقول لى:
- من أنت بالضبط؟
- أنا كما قلت لك دينا الصواف، خريجة آداب أنجليزى، أحب القراءة وأكتب الرواية ...

- قلبى يحدثنى أن الموضوع أكبر من ذلك ...

- ليس أكبر بكثير، وعدتك أن أحكى لك ذات يوم ....أنا كما ذكرت منذ قليل مع إضافة

أننى على خلاف كبير مع زوجى وأننا شبه "منفصلين" وأنا جئت إلى هنا بعد أن سئمت

الحياة فى مصر ووجدتها فرصة لتغيير الجو. ولم يعترض زوجى على ذلك على أمل أن

فترة ابتعادنا قد تجعلنا أكثر قدرة على اتخاذ القرار السليم فيما يتعلق بمستقبل زواجنا ...
- هل هذه هى الحقيقة فعلًا؟
- نعم يا ياسر ...أرجوك إن علاقتنا إلى الآن فى منتهى اللطف فلا تزيدها أوتنقصها ...
- فهمت قصدك يا دينا ....حاضر .

دخلت الفندق وقابلت مسز فلورانس وقالت لى: أنت اليوم سعيدة أليس كذلك؟

نعم كنت سعيدة ونمت قريرة العين أولًا: بسبب حادثة فرانسواز ساجان واتخاذى القرار

بالذهاب إلى المنتدى. وثانيًا: لأننى وجدت الكينونة التى أقدم نفسى بها لياسر..

استيقظت فى الصباح ومارست طقوسى المعتادة إلا أننى كنت أستعد بينى وبين نفسى لتلقى الأسئلة التى لابد وأنّ ياسر سيسألها لى...واضح أنهمهتم بى ....ليس اهتمام شاب يكافح من أجل لقمة العيش فى مطبخ مطعمبسيدة تعمل فى نفس المكان، يقشران البطاطس ويثرثران ويدخنان سويًا وقت الراحة ....لا ...أعتقد أننى قد أصبحت شيئًا هامًا فى حياته .. سيسألنى ولابد أن أجيب ....أكيد سيسألنى عن سبب الخلاف بينى وبين زوجى ....وماذا أنوى أن أفعل ....ولكن سؤالى أنا لنفسى الآن ..هل أجيب ياسر من واقع الحقيقة الفعلية، أى سبب الخلاف الفعلى بينى أنا فردوس الوراق وزوجى محمود أم أجيبه من وحى خيال روائية قديرة تستطيع أن تستمر فى الكذبة و تؤلف دراما محبوكة سيصدقها هو بسهولة .... سبق أن كررت أكثر من مرة أن علاقتى بمحمود طويلة ومعقدة ..

بعد اختفاء حاتم من حياتى ...بعد الصدمة، كان لابد أن أتوخى الحذر فى علاقاتى ....مسألة سائق القطار هذه لن تمحى من سجلى. سأظل إلى الأبد ابنة سائق القطار؛ لذا فلابد أن يكون الشخص الذى سأرتبط به؛ إما متقبل لهذا الأمر بسهولة أوأن تكون ظروف لقائنا استثنائية جدًا. بمعنى أوضح ...من سأرتبط به لابد أن يكونمن بيئة مشابهة، أوأن يكون شخص استثنائى وفى ظروف استثنائية ...أعتقد أن هذا كان تفكيرًا منطقيًا جدًا، ولكن أن أحاول الارتباط بشخص بنفس مواصفات حاتم فهذا هو العبط بعينه!

التقيت من خلال عملى الجامعى ومن خلال محاولاتى شبه الفاشلة للاقتراب من المجتمع الأدبى كروائيةبالكثير من الرجال ...من كافة الأعمار وكافة الاتجاهات ....اقتربت من

بعضهم أكثر، وكدت أن أنزلق إلى علاقات شبيهة بعلاقتى بحاتم. وفى اللحظة الأخيرة كنت أنسحب بهدوء وبأى حجة. طبعًا كان هذا يؤلمنى جدًا، ولكن ما باليد حيلة لم يكن من الممكن أن أتحمل جرحًا جديدًا .

كان من الطبيعى إذن، بعد أن فشلت فى العثور على الرجل المناسب أو بالأصح أن أحب أو أستلطف الشخص المناسب. أن أتخلى عن بعض مبادئى أو لنقل أن اتنازل ...كنت أرفض بشدة زواج الصالونات. كنت أطلق عليه سم "زواج المعرض" ...فلان يعرض نفسه على فلانة التى تعرض هى نفسها عليه. فإذا أعجبتهما البضاعة مبدئيًا تبدأ المفاوضات ....رفضت هذا بشدة وسخرت منه فى أكثر من رواية كتبتها ...ولكن ها أنذا الآن أقبله ....لابد مما ليس منه بد ..لا مانع من أن أجرب ما نصحتنى به زميلتى "مفيدة صدقى" مفيدة ذكية وتصل للخلاصة بدون الدخول فى تفاصيل ...أدركت هى من التصاقنا فى القسم أننى أريد الزواج ...و أننى مهما حاولت أن أبدو كفتاة متحررة قوية ومثقفة وخارجة عن النمط التقليدى إلا أننى فى النهاية أنثى تبحث عن الحب ...تبحث عن الارتواء و ربما أيضًا تبحث عن الأسرة والاستقرار ....وافقت إذن على المبدأ وتم ترتيب موعد بينى وبين مهندس يكبرنى بحوالى ثلاث سنوات. شكله مقبول وكذلك هندامه، طبعًا اختارته مفيدة لأنها فهمت مسألة سائق القطار!

هو أيضًا والده إنسان بسيط ....ربما دخله أقل من دخل والدى .. كانت مفيدة متواجدة معنا ثم بطريقة تقليدية انسحبت لتتيح لنا الفرصة ...بدأنا الحديث؛ أعلم جيدًا أننى لن أتمكن من العثور بسهولة على رجل على نفس قدر ثقافتى العامة أو حتى أقل قليلًا ...أعلم قدر

نفسى و ليس هذا غرورًا، ولكنه تقرير للواقع ، لذلك لم أحاول أن أسبر غوره من ناحية الثقافة. اكتفيت بالقليل الذى يبدو على السطحعندما يتكلم ....لم أحاول أن أبرز مواهبى وقدراتى؛ فهذا كفيل أحيانًا بأبعاد أى رجل تقليدى يرى أنه لابد أن يكون متفوقًا على أنثاه!! كانت الأمور على ما يرام فى اللقاء الأول، ولكن فاللقاء الثانى وبعد أن انسحبت مفيدة بدأت الأمور تدخل فى الجد...بدأت المفاوضات و بدأكل طرف يفرد عضلاتهبعد أن تصور أن الطرف الآخر قد كسر الحاجز الأول وأصبح على استعداد للتنازل إذا لزم الأمر... لم أبدأ أنا بفرد عضلاتى وإنما فعل هو...

- لا أعتقد يا أنسة فردوس أن هناك ما يمنع من أن ترتدى الحجاب. أعتقد أنك بالفعل قد فكرت فى هذا ولكنك ربما تكوننن قد أجلت القرار إلى حين ... شعرك جميل وناعم ...أشهد بذلك، ولكن إذا حدث نصيب فلا يجوز أن يستمتع برؤيته إلا صاحب النصيب....أليس كذلك؟

كثيرًا ما سمعت هذا الحوار، فى الأفلام، فى المسلسلات، فى حكايات الطالبات وسخرت منه ....اسمحوا لى أن أقول بوضوح: سخرت منه ....بالتأكيد ليس سخرية من الدين أو من الفكرة، ولكن سخرية من أن يطرح هذا على مائدة المفاوضات...سمعت هذا الحوار عشرات المرات، ولكنى لم أتخيل أبدًا أن أكون طرفًا فيه ....لقد تنازلت وقبلت بزواج المعرض، ولكن أن أجد نفسى طرفًا فى هذا الحوار الصبيانى؟؟ أيضًا فوجئت أن زميلى فى المعرض يطرح هذا الموضوع؟ أنا لم أستشف منه فى اللقاء الأول أى ميل إلى التدين أو أى توجه عقائدى ...لماذا إذن طرح هذا الموضوع؟ لماذا أصبحنا فى مصر

ننتهج سياسة أتباع القطيع مثلًا: طلب"س" من الناس من"ص" المرشحة للزواج منه بل اشترط عليها أن ترتدى الحجاب، إذن هذا دليل على أنه متدين وغيور ووقور، إذن فلنقلده جميعا!!

لا لا لا لن أسكت عن هذا الهراء سأرد والآن، حتى وإن غار هذا العريس فى ستين داهية!

- وهل تظن أن هذا الموضوع ذو أهمية فى مشروع زواجنا؟ هل إذا قلت لك نعم وأنا غير مقتنعة أو حتى مقتنعة، ولكن أفعله فقط لترضى عنى هل أكون هنا زوجة مثالية ظفرت بها؟ أحب أن أخبرك أننى لا أجد أى علاقة على الإطلاق بين ما يرتديه الإنسان وبين سلوكه الدينى ....معذرة إذن أنا لا أرى أن لمسألة الحجاب أى علاقة بزواجنا!!

حاول أن يعتذر ويتراجع واستكملنا حديثنا بطريقة طبيعية، إلا أنه لم يأتِ أبدًا بعد هذه المقابلة. ولم أهتم أنا ولم تهتم مفيدة بمحاولة معرفة سبب ابتعاده. كان الأمر واضحًا جدًا؛ لقد عاد إلى منزله وحكى لأمه وأبيه وربما لواحد من أصدقائه فتطوعوا خيرًا ونصحوه بالابتعاد عن هذه الفتاة ...لأنها بعيدة عن الدين وتنكر ما هو معروف بالضرورة!!! طبعًا قرر هو الابتعاد لأن أتباع القطيع أسلم فى هذه الأحوال حتى وإن كان مقتنعًا بغير ذلك!!

لم أتخذ بعد هذا الحادث قرارًا بالتراجع عن زواج الصالونات ...لماذا؟ لست أدرى لا لا لا أنا أدرى جيدًا لا داعى للكذب والمداراة أنا الآن بصدد حياة جديدة ...أنهيت حياة وبدأت حياة أخرى فلابد من الشفافية ....أنا أعلم لماذا استمرت فكرة زواج المعرض بالرغم من عدم اقتناعى به ...كان لابد لى أن أتزوج. لم يكن الزواج أبدًا من خططى المؤجلة

...من الجائز أنه يجيء فى المرتبة الثانية بعد عملى ومالى وبنائى لشخصيتى وكيانى إلا أنه موجود على الخريطة ....لماذا؟ لأننى لم أكن على استعداد لتقبل فكرة أن أكون " عانس" أنا لا أستحق هذا ....لماذا؟ لأننى مشحونة بطاقة عطاء و حنان أحب أن أفرغها على من يستحقها ....أفرغت طاقتى على إخوتى و أمى الحبيبة وحتى على أبى وأنا بحاجة الآن لأن أفرغها على رجل أحبه وأخلص له ..لماذا؟ بصراحة....لأننى أحتاج إلى الجنس ....لا أستطيع أن أنكر هذا ولن أدعى فضيلة كاذبة وأقول أنه ليس فى أولوياتى أودائرة اهتمامى أوأنه فقط وسيلة لإنجاب الأطفال ....لا ...تعرفت على الجنس كما ذكرت مبكرًا ..مبكرًا جدًا واستطعت أن أصون نفسى طوال هذه المدة فبقيت عذراء وبلا أى تجارب ولكنى لم أستطع أن أمنع نفسى من التفكير فيه ...بصراحة أكثر أنا لست امراة خاملة من هذه الناحية ....بل أستطيع أن أقول أننى امرأة نشطة ....بل نشطة جدًا ...فإذا كان احترامى لجسدى و كرامتى لا يسمحان لى بأن أحصل على المتعة بدون زواج. وإذا كنت – رغم عدم التزامى حرفيًا بطقوس و شعائر دينى – لا زلت على الأقل مؤمنة بتعاليم ومبادىء هذا الدين و حريصة عليها وعلى رضاء رب العالمين. وبالتالى فلا مجال أمامى للحصول على ارتوائى الجسدى إلا بالزواج ... لم أتمرد إذن على زواج المعرض ... فوجئت بمفيدة صدقى ذات يوم تطرق باب مكتبى وتقول بصوت عال:

- سبحان الله، أمام أعيننا ولا نراه ...نبحث بعيدًا وهو على بعد خطوتين ..

- من هذا؟
- العريس ..
- من؟

- محاسب وسيم، عائد من السعودية لتوه. أكبر منك بخمس سنوات ويسكن على ناصية شارعكم ....قد تتذكرينه إذا ذكرت لك اسمه الآن: محمود كامل السيسى.

- محمود .. محمود .. محمود ...السيسى أى ناصية تقصدين؟ الناصية التى تقع فيها بقالة الوفاء؟

- بالضبط... ووالده هو صاحب هذه البقالة ....كان موظفًا بالأوقاف وتعليمه أزهرى. محمود هو ابنه البكر وله شقيقتان متزوجتان واحدة تخرجت فى كلية التجارة والأخرى انتسبت للحقوق ولم تتخرج بعد ...هل تذكرتيه؟

- أعتقد أننى أتذكره ولكن مر وقت طويل دون أن أراه ففكرت أنه قد يكون قد ترك المكان

– لا... كما قلت كان فى السعودية والحقيقة أنه بمجرد عودته فكر فى الزواج فسأل شقيقته و الغريبة أنه سأل عنك بالاسم وعما إذا كنت مرتبطة أم لا. وبما أن شقيقته صديقتى وتعرف أننى صديقتك فقد سألتنى وطبعًا أنا تصنعت أننى لا أعرف شيئًا وأننى لا بد أن أسألك. على الأقل من ناحية المبدأ ...

- ولكنى لا أذكر شكله بالضبط ..
- أخته تقول أنه وسيم، ولكن من الجائز أن القرد فى عين أخته غزال ....هاها ها
- وماذا يعمل؟
- لا أعرف بالضبط، ولكنى أظنه يعمل عملا حرًا ...سنعرف على العموم ...

تم تحديد الموعد ....السابعة مساءً فى لوبى الشيراتون ...مفيدة كانت معى وأيضًا شقيقته هدى ....كانت حامل وبالكاد كانت تستطيع أن تسير وبطنها أمامها مترين!! سلمت عليها وتذكرتها على الفور ....هناك وجوه فى منطقتنا مألوفة جدًا ولكنى لا أعرفها معرفة شخصية. هدى واحدة منها ....أما هو.... محمود فقد كان وجهه مألوفًا جدًا جدًا لدىّ

وتذكرته على الفور ؛ تذكرته لسبب واحد أنه كان يقف فى محل البقالة ....أكثر من مرة اشتريت من هذا المحل وكان هو الواقف هناك وكنت أتسائل.. كيف لهذا الشاب الوسيم الأنيقأن يعمل فى بقالة؟ ...أحسست بالارتياح؛ فالمثل الإنجليزى يقول: الشيطان الذى تعرفه أفضل من الشيطان الذى لا تعرفه. وهذا المحمود لم نسمع عنه شيئًا سيئًا إلى أن اختفى فجأة!!

محمود أسمر وطويل القامة، معتدل القوام، شعره أكرت قصير، له شارب رفيع هو أسوأ ما فيه. حاولت كثيرًا أن أجعله يحلقه وفشلت ....فى هذا اليوم كان يرتدى قميصًا لبنيًا و بنطلون رمادى و جاكت بليزر وبدون ربطة عنق ....عينا محمود تلفت النظر. لن أستطيع أن أصفها، و لكنها تشبه عينى فنان شاب ظهر فيما بعد هو هانى سلامة ...ربما هاتان العينان لفتتا نظرى منذ سنين ....و هاهو الآن يقف فى المعرض ....

عندما انفردنا بدأ هو الكلام بكل ثقة وكان ينظر فى عينى تمامًا:

- الحقيقة أنا أعرفك من زمن. و لا زلت أذكر عندما كنت تأتين مع شقيقيك التوأم لشراء لوازم المنزل ....أنت تشترين وتقومن بالدفع وهما يحملان البضاعة والحقيقة أيضًا أننى كنت معجبًا بك من وقتها وعندما تخرجت سنحت لى فرصة السفر. لم أفكر فى الأمر، سافرت على الفور وبصراحة كانت أربع سنوات عجافلم أكن أفعل شيئًا سوى أن أعمل وأعمل؛ حتى أستطيع أن أدخر مبلغًا أستطيع أن أعيش به حياة كريمة هنا. ولقد أكرمنى الله فكلفت بإدارة شركة يمتلكها كفيلى فى مصر. وهو رجل طيب ويثق فىّ تمامًا وأعتقد أن مرتبى من هذا العمل يكفى وزيادة لأن أتزوج وأفتح بيت. هذا بالإضافة إلى أننى –

وبالاتفاق مع شقيقتى والوالد – وصلنا إلى قرار وهو أن نحول محل البقالة إلى محل لبيع قطع غيار السيارات فأنا لى خبرة طويلة فى هذا المجال ...هذا من الناحية العملية ويمكنك أن تسألينى أى سؤال فيما يتعلق بى أنا شخصيًا ...

لا أستطيع أن اقول أننى أحببت محمود من أول نظرة. و إلا كنت أحببته من زمن عندما كان يقف فى البقالة، ولكن أستطيع أن أقول بوضوح أننى اقتنعت به تمامًا. هو واضح وصريح وقدم نفسه بطريقة سهلة ولطيفة. كما أن مستوانا الاجتماعى تقريبًا واحد وهو يعلم تمام العلم أننى ابنة سائق قطار ...

أدركت لأول وهلة أن محمود ذكى و يعرف طريقه تمامًا.. و بكل سهولة عرفت أن ثقافته عادية. ليست ضحلة ولكنها ثقافة رجل الشارع التى يستمدها من أحاديث الآخرين ومن التليفزيون والإذاعة وأحيانًا من عناوين الجرائد ....مش مهم..

كانت فترة الخطوبة معقولة جدًا .لم أرَ فيها ما ينفرنى من محمود ولم يدعِ هو فيها سلوكًا غير متأصل فيه ....لم يناقشنى أبدًا فى ملابس أرتديتهاً و فى زميل سلمت عليه بقوة وحميمية. لم يتذمر أبدًا و هو يرانى مشغولة عنه بالإعداد لرسالة الماجستير أوتحضير الدروس التى سألقيها على الطلبة.

كان متفانيًا فى عمله ويحاول قدر جهده أن يستحوذ على ثقة صاحب الشركة. حاول دائمًا أن يلبى جميع طلباتى ووافق منذ البداية على مهر معقول وشبكة قيمة ولم يبخل علىّ أبدًا بالهدايا فى المناسبات المعروفة و أحيانًا بلا أى مناسبة ....كنت ألاحظ أنه شديد الفخر

ويتباهى بكونى عضو هيئة التدريس بالجامعة ويركز على ذلك إذا حدث وعرفنى على أحد من أصدقائه أو أقاربه،ولكنى لاحظت أيضًا أنه فى كل مناسبة يستفسر بذكاء شديد عن دخلى ومصادره ....مرتبى، البدلات والحوافز، أى أموال أحصل عليها من أعمال خارج الجامعة. فقد كنت وقتها أعمل كمترجمة من منازلهم فى عدة مكاتب معتمدة للترجمة كما أننى كنت أراجع رسائل الماجستير والدكتوراة لغويًا وإملائيًا لمن يرغب. وأعمال أخرى كثيرة ....لم أتوقف قط طوال حياتى عن السعى لكسب المال وكان دائمًا الرزق يأتينى من حيث لا أحتسب.

كنت أجيبه وقتها بكل براءة وسلامة نية، ولكن كانت استفساراته هذه تقلقنى وأيضًا هذا التجاهل الواضح للإشارة من قريب أو بعيد إلى أى ميزة شكلية جمالية متوفرة فىّ ...والله العظيم هذا ما حدث. لم يحدث مرة أن أشاد بفستان جديد أرتديه أوتسريحة شعر مبتكرة لم يقل لى أبدًا: أيه الجمال ده، أو أيه الحلاوة دى.. كما يفعل المخطوبون ولو كذبًا!! لعلكم تتذكرون قولى بأننى أرى نفسى أنثى قبيحة، ولكن شيئًا ما بداخلى كان أحيانًا يهمس لى بأن هذه نظرتى أنا وليست الحقيقة؛ لأن الناس من حولى كان رأيهم غير ذلك لذا فقد تعجبت من أمره ... كان يجب أن أسأل مفيدة التى أعتبرها خبيرة فى شئون الرجال. ضحكت وأجابتنى بطريقتها المعروفة: إطلاقًا، لا بد أنه من نوعية الرجال الخجولة نسبيًا هو بلا شك يراك جميلة وأنيقة،ولكنه يخجل من قول ذلك وأنا متأكدة بالتدريج وعندما تنفردان ببعض على السرير سينطق أبوالهول ... لم أصدقها..

انقضت فترة الخطوبة. ولم يطرِ محمود على جمالى المفترض أبدًا. لم يمسك يدى أبدًا و

لم يقبلنى خلسة فى الظلام أبدًا ومع ذلك بدأنا نستعد للزفاف الوشيك!!

أخيرًا جاء يوم الثلاثاء؛ انصرفت من المطعم فى الخامسة. طلبت من ياسر أن يصحبنى إلى المنتدى. رفض فى البداية بحجة أنه لم توجه له أي دعوة، ولكن عندما أخبرته أننى خائفة من تواجدى هناك كأنثى وحيدة. شحذت فيه همة الرجولة فقرر أن يرافقنى ..

كنت قد انتقيت فى عطلة نهاية الأسبوع فستانًا اعتقدت أنه يلائم المكان، ارتديته مع حذاء بكعب عالى. وطبعًا على كتفى معطفى الثمين لأن الشتاء كان قد بدأ ..لم يستطع ياسر أن يصمت عندما رأنى فقال: لا يمكن أن تكون صاحبة هذا الجمال وهذه الأناقة مساعدة طباخ فى مطعم متواضع .....قلت لنفسى: هاهو ابن العشرينات الذى لم أعرفه إلا منذ أيام قليلة ينطق ....لماذا لم يتكلم محمود خلال عقد كامل!!

- هل أنت متأكد من سلامة نظرك؟ قد أكون أنيقة، ولكنى لا أظن نفسى بهذا الجمال الذى تتحدث عنه!!

- أنا نظرى ستة على ستة وحاد..... أنت التى تتواضعين ...

- ياسر ...و بعدين؟

- حاضر.... حاضر...تذكرت .. هيا بنا ..

أوصلتنا سيارة التاكسى اللندنية العتيدة إلى شارع ادجوار ثم نظر السائق فى خريطته وأوصلنا أمام المنتدى .

لم يكن يبدو على المبنى أى شىء يدل أنه منتدى أو أى مكان عام. تخوفت من الخطأ فى

العنوان ...ولكن بعد أن رن ياسر جرس الباب فتح لنا رجل أربعينى يبدو عليه بوضوح

أنه عربى. رحب بنا ودعانا للدخول ....سألته عن الأستاذ سلمان جابر أو الدكتور فهيم

فأجابنى بأنهما متواجدان وسيظهران حالًا ..

لمحنى سلمان من بعيد فأتى مهرولًا و رحب بى ترحيبًا مبالغ فيه. عرفته بياسر على أنه

صديق عزيز فرحب به بجدية ووقار ..
- توقعت ألا تجيئى ..
- لا يمكن أن أسمع عن تجمع أدبى ولا أتواجد ..
- أردت أن اسألك فى لقائنا الماضى عما إذا كنت تكتبين؟

ترددت قبل أن أجيب ...

- نعم ...لدى ستة روايات وخمس وعشرون قصة قصيرة ...
- حقا؟
- نعم ولكن ماجدوى ذلك إذا كنت لم أنشر شيئًا ...
- من قرأ لك إذن ...من استمتع بكتاباتك؟ أم أنك تكتبين لنفسك ....لمتعة الكتابة؟

احترت فى الإجابة...فكرت قليلًا ثم قلت:

- قرأ لى بعض الزملاء والزميلات و أحيانًا أقرأ بعض انتاجى فى منتديات مثل هذه، ولكن

أكثر تواضعًا ..
- هل معك شيئ من هذا ...
- نعم أحمل معى رواية وأكثر من قصة قصيرة على هذا السى دى "القرص المدمج" .

- ممتاز ...سمحى لى أن آخذه منك فى نهاية اللقاء؛ سأقرأه ثم أعطيك رأيى ...موافقة؟

- بالتأكيد.

دخلنا المكان، استأذن سلمان ورحت أنا وياسر نتجول وسط الحضور. من الغريب أننى

استطعت التعرف على الكثير من الموجودين ....هذا بسام خالد أديب سورى متواضع الموهبة، ولكنه متواجد على الساحة دائمًا وهذا للمفاجأة أديبنا الكبير كمال العنانى، ما الذى أتى به إلى لندن وهنا بالتحديد. كنت أظنه مكانا للهواة!! ربنا يستر؛من الجائز أن يلمحنى ويتذكرنى؛ سبق أن التقينا فى مؤتمر للكلية وأخذت منه حديثا لمجلة الجامعة يومها طلبت منه أن أعطيه رواية لى ليبدى فيها رأيه... رحب، ولكنى ذقت الأمرين و... دخت السبع دوخات فى محاولة توصيل الرواية إليه فى مكتبه ...رفضت سكرتيرته الشمطاء أن تتسلم الرواية إلا بعد إن تستأذنه ...و بالطبع كانت دائمًا تنكر أنه موجود بمكتبه!!

رأيت أيضا الشاعرة الكويتية نهاد الملاح، كنت أظنها أجمل من ذلك!! هكذا كانت تبدو فى الصورة التى تظهر دائمًا فى مقدمة قصائدها!!

بعد أن تناول من تناول من الحضور مشروباتهم ....سكت الجميع وراحوا ينصتون لما سيقوله الدكتور فهيم مرزوق:

- سيداتى وسادتى نبدأ اليوم لقائنا المعتاد و يسرنا أن نستهل أمسيتنا مع الشاعرة الكبيرة نهاد الملاح ..

تعجبت ...كيف يقدم مرزوق العراقى، نهاد الكويتية ....ألم تزل آثار عدوان العراق على الكويت عالقة فى أذهان كل العرب؟ فما بالك بالكويتيين؟

تقدمت نهاد فى دلال لم أجد ما يبرره خاصة وقد تجاوزت الخمسين كما هو معروف ..

...راحت تلقى على مسامع الحضور قصيدتها العصماء والتى لم أجد أيضًا أى مبرر لهذا

التصفيق الحاد الذى كان يقاطع استرسالها فى إلقائها ...هل وصل النفاق إلى هذا الحد؟هل يصفقون لهذه الألفاظ المتقعرة التى تستخدمها باسم الحداثة والتجديد؟ أم يصفقون لهذا التقليد الأعمى لنمط قصائدشعراء آخرين ...مزيج من شعر نزار على شعر الفيتورى على عبد الصبور مع القليل من بنات أفكارها!!

و بعد أن أراحت واستراحت نهاد و انتهت القصيدة. راح سلمان يقدم للأستاذ العنانى الذى حيا الحضور ثم بدأ محاضرة طويلة تناولت عدة مواضيع منها أثر الأحداث السياسية فى تطور الرواية العربية ثم دور الرواية فى توجيه المجتمع و أخيرًا أهمية التجربة الشخصية فى حياة المؤلف ...وددت أن أقاطعه أكثرمن مرة معترضة على نمطية ما يقوله وعلى استرساله فى كلام ثبت مع الزمن أنه كلام ...مجرد كلام،فالفن فى النهاية هو إبداع إنسان و متعة لمتلقى. أما هذا الكلام الأكاديمى فمكانه الجامعة وليس منتدى يجمع محبى الأدب.. سكتت ....أولًا: لأننى خشيت أن يتعرف العنانى علىّ وثانيًا: لأننى أشك أن الكلام الذى سأقوله ممكن أن يفهمه الموجودون .....هل أنا مغرورة؟ كتمت غيظى ...

كان ياسر المسكين يكاد يغلى من داخله ....إنه متواجد فى المكان الخطأ ...لم يذكر لى أبدًا أنه يهتم بالأدب أو بالأدباء ...

أكثر من مرة طلب منى أن ننصرف من هذا الجحيم .. وأكثر من مرة كنت أتوسل إليه وقلت له: معلهش عشان خاطرى ....شوية كمان و يستجيب.

كنت مستمتعة و أحس أننى أحلم ...فلطالما ارتدت مثل هذه المنتديات فى القاهرة

والأسكندرية و غيرها، و لكن هذه أول مرة أرى فيها أدباء و شعراء يجتمعون بعيدًا عن القاعات الكبيرة والفنادق، بعيدًا عن البروتوكولات والرسميات، ويتصرفون على طبيعتهم فى عاصمة الضباب ...مثلًا بعضهم كان يشرب الخمر علانية!!

ولأول مرة أتواجد فى مثل هذه المنتديات بصفتى الجديدة ....هاوية للأدب، منفصلة حديثًا عن زوجها. ولأول مرة أيضًا وأنا فردوس الوراق، أستاذة الأدب العربىوالروائية الفاشلة، ولكن المتوفية حديثًا!!!! إحساس لا يمكن أن يضاهيه أى إحساس ....مشاهدة الواقع من خارجه ...رؤية جديدة!

انتهى اللقاء و لم ينسَ سلمان أن يأخذ منى السى دى ...حمدت الله أننى منذ أسبوعتذكرت أن أمحو اسمى أو أى شىء يدل على شخصيتى من جميع سيديهاتى ...وعدنى سلمان مرة أخرى بقراءة الرواية وطلب منى المواظبة على حضور اللقاء الأسبوعى.

كان أسعد إنسان فى الوجود بعد انتهاء اللقاء هو ياسر!! أحسست به وهو يخرج من الباب كأسير فكوا قيوده!! دعانى إلى العشاء..حاولت أن أتمنع ، ولكنه قال:ألا تعتبرى قبولك للدعوة مكافأة بسيطة على تحملى البقاء فى هذا المكان لأكثر من ثلاث ساعات! وافقت شريطة أن يكون مطعمًا رخيصًا!

كانت جلسة لطيفةلم يحاول ياسر فيها أن يغازلنىأو أن يتطرق إلى مسألة خلافى مع زوجى، ولكنه لم يكف أبدًا عن محاولته معرفة أى شىء عن حياتى السابقة ...

لم يكن ياسر بالشخص الممل بجميع المقاييس، صحيح هو محدود الثقافة و غير مهتم بالأدب، ولكنه شخص لطيف المعشر، ومتحدث لبق، ومستمع جيد، والأهم من ذلك بالنسبة

لى هو أنه كان جذابًا جدًا؛ جذابًا بالمعنى الذى ذكرته من قبل عندما قلت أننى تمنيت أن أقيم معه علاقة ...صحيح أننى غير ناوية على ذلك إطلاقًا إلا ّن مجرد التواجد بصحبة هذا الجذاب متعة كبيرة لاسيما عندما أخلو إلى نفسى بعد ذلك و أسترجع وأتخيل....وأنا خبيرة فى ذلك!!

راودتنى هذه الليلة بالذات خيالات وأطياف...رغبات مشروعة وغير مشروعة ....ولكن أكثر ما كان يسيطر على فكرى هو: ماذا سيكون رأى سلمان جابر فى روايتى؟

لم يظفر ياسر منى بإجابة شافية عن أسباب الخلاف المفترض بينى وبين زوجى. فراح يلف ويدور اليوم أثناء تقشير البطاطس ...والحق أننى كنت أريد أن أحكى له، ولكن كما ذكرت؛ أحكى عن خلافى مع محمود أم عن خلاف دينا الصواف مع زوجها الافتراضى؟ من الصعبأن أسترسل فى كذبة خلافات دينا مع زوجها، ولكنى أيضا لا أستطيع أن أحكى عن خلاف فردوس مع محمود لأن فى هذه الحالة لن يصدق ياسر أننى دينا الصواف!! هل فهمتم شيئًا؟

ربما... فيما بعد، إذا اعتدت على ياسر يمكننى أن أحكى له عن كل شىء حقيقى ..

الحقيقة أن خلافى مع محمود بدأ منذ الليلة الأولى ...ليلة الدخلة .

جاءت الليلة الموعودة ... كنت سعيدة مثل كل البنات ....أقام لى محمود ليلة فرح فى نادى مهنى قريب من منزلنا ....بالتأكيد كان حفل زفاف متواضع، ولكنه متكامل ...راقصة ومطرب مغمور و بوفيه لا بأس به ....كان من الممكن أن أضغط عليه ليكون الفرح فى

مكان أفضل، ولكنى اكتفيت بذلك مقنعة نفسى بأن الفرح الحقيقى فى القلب...كنت سعيدة ومتفائلة بالرغم من كل مخاوفى.فكرة أن أتواجد مع رجل مكتمل سعى بنفسه ليرتبط بى فى غرفة واحدة، بل فى سرير واحد ....فكرة أن رغبات جسدى ستجد أخيرًا من يطلقها من محبسها ....جعلتنى فى نشوة ...نشوة الترقب...كيف سيكون هذا الرجل؟ كيف سيحتوينى؟ كيف سينتهى هذا اليوم التاريخى؟

دخلت غرفتنا فى الفندق التابع للقوات المسلحة والذى استطاع محمود "بالواسطة" أن يحجز لنا فيه يومين قبل أن نسافر لمطروح لقضاء شهر العسل ....الغرفة نظيفة ومرتبة و أنيقة، ولكنها طبعًا لم تكن الغرفة التى حلمت أن انتقل فيها من مرحلة إلى مرحلة أخرى. الغرفة التى سيتغير فيها لقبى من آنسة إلى مدام أو سيدة ...ولا حتى الفرح؛ كانت أحلامى وطموحاتى أكبر بكثير مما تم بالفعل ...لطالما حلمت بالفندق الخمس نجوم وبشهر العسل فى أوروبا أو تركيا على أقل تقدير!! ولكنى أذكى من أن أتعلق بأوهام أو أن أضيع فرصة للاستمتاع بما هو كائن بالفعل .....أنا لا أبكى أبدًا على اللبن المسكوب!!

قلت لنفسى- كما كنت أقول دائمًا - كلمات شاعر تركيا العظيم ناظم حكمت" أن أجمل الأيام هى التى لم نعشها بعد " بل إن أجمل الأيام هو عنوان رواية كتبتها أيضًا!!

رضيت بما قسمه الله لى وقررت أن أستمتع بليلة دخلتى!

كروائية تخيلت أحداث هذه الليلة مليون مرة. وفى كل مرة سيناريو مختلف ...إلا أننى لم أتخيل أبدًا السناريو الذى حدث بالفعل:

- لم يحاسب والدك المصوراتى كما اتفقنا ...فوجئت به يشير إلىّ من بعيد بعد الفرح. أحرجت فدفعت له ...

قال محمود هذه الجملة وهو يجلس على السرير ويخلع حذائه، بينما أنا أمام التسريحة أحاول فك طلاسم فستان زفافى لأسهل على محمود مهمة تجريدى منه!! هكذا تخيلت!

- معلهش يا حبيبى أكيد كان فيه ظروف!!

هل هذا شىء يقال ليلة دخلة يا محمود ...قلت لنفسى ..ولكنى لن أفسد ليلةدخلتى ...سأنسى ما قاله ..

- خلاص يا دوسة – هكذا كان يدللنى – الحمام فاضى.... يمكنك أن تخلعى فستانك على راحتك فيه ...

أحبطت ...تخيلت دائمًا أن يقوم عريسى بمحاولة فك فستانى.... يفشل فأساعده وألمح فى عينيه بريق الرغبة والتلهف، وأخيرًا ينزل الفستان من على جسدى ويجردنى هو من بقية ملابسى قطعة قطعة ...

حاولت أن أوحى إليه بذلك بنظرة من عينى وإيماءة من عنقى، لكن دون جدوى. كان منهمكًا فى تعليق بذلته الأنيقة بحرص شديد فى الدولاب وفى وضع محفظته وساعته و بعض الفواتيرعلى الكومودينو بجوار السرير!!

لا بأس ..دخلت الحمام وخلعت فستانى بصعوبة شديدة لسبب بسيط هو أن الحمام صغير و الفستان كبير وكنت أخشى عليه من البلل!! ما علينا، وجدت نفسى بالملابس الداخلية فقط. خجلت أن أخرج هكذا. طلبت من محمود من خلف الباب أن يفتح حقيبتى و يأتى لى

بقميص نوم ليلة الدخلة الذى أوصيت رئيسة القسم وقتها أن تشتريه لى من دبى ...كان رائعًا و جربته مرة أمام إحسان و مفيدة فقالتا ضاحكتين: حاجة تخلى الحجر ينطق!!

فتح محمود الحقيبة و أخرج القميص و طرق باب الحمام، فتحت لآخذه من يده ...توقعت أن يحاول دفع الباب ليلقى نظرة على جسدى ...و.. كان مجرد تخيل هذا يثير كل حواسى

..لم يفعل ..أخذت القميص وارتديته وسرحت شعرى ورضيت عن هيئتى فى المرآة وخرجت ....

لمعت عيناه لثوانى ...انشغلت بوضع قطرات من بارفان باهظ الثمن، اشتريته من السوق الحرة بمرتب شهر كامل ....لم يأتِ إلىّ حيث أجلس أمام التسريحة ....لم يطوقنى من الخلف ولم يقبلنى وراء أذنى كما كنت أتخيل فى أحلام يقظتى!!

انتظر حتى أتيت أنا إلى حيث يستلقى على الفراش ...أطفأت النور كعادة أى بنت عندما تحاول أن تبدو خجولة!! لم يحاول هو أن يعيد إضاءته كما تخيلت فى سيناريوهاتى ....لم يشدنى من ذراعى ويضمنى إليه. لم يهمس فى أذنى قائلًا: أخيرًا! أو أحبك أو شىء من هذا القبيل ...

انتظر حتى وصلت إليه ثم أفسح لى مكانًا بجانبه. تحسس حتى عرف أين تقع شفتى!

اقترب منها وقبلنى، أطال القبلة ثم امتص شفتى بشفتيه بقوة، لمس صدرى وتحسسه ولم يزد على ذلك ...رفع قميصى وما تحته بطريقة لا تخلو من شىء من القوة ....بعد ذلك جرت الأحداث بسرعة ....لا أتذكر منها سوى إحساس بالألم فى أسفلى، ثم محمود يقوم من الفراش ويغطينى بغطاء السرير ويضىء النور ويبحث عن شىء تحت الغطاء ...ولما

لم يجده قال بلهجة تصنع فيها اللطف والرقة:
- هل تألمتى كثيرًا؟
- تألمت، ولكن ليس كثيرًا ..
- هل نزفت كثيرًا؟
- لا أدرى ...استعنت بمنديل كلينكس للاستكشاف وخرجتُ به وعليه نقطة صغيرة

لا تكاد ترى من الدم ...

- لا ليس كثيرًا، نقطة صغيرة ...

ربت على كتفى وأطفأ النور وقال: تصبحى على خير ..

وهكذا انتهت ليلة دخلتى!!

لا قبلات ساخنة ...لا تنهدات ولا لمسات سحرية لأماكن سحرية ...لا ذوبان كل فى جسد الآخر ....والأهم منذلك.... لا سيناريو واحد من سيناريوهاتى تحقق على أرض الواقع!!!

لم أكن من الغباء بحيث لا أدرك أن محمودًاكان متشككًا فى عذريتى!!! لم يشغلنى ذلك لأننى أتفهم الرجل الشرقى، ولكن ما شغلنى هو لماذا؟ ما الذى رأه منى أو أحسه ليتشكك؟ حسبت نفسى محترمة شكلًا و موضوعًا و سمعة وسيرة ....لماذا تشكك؟

سألته صباح اليوم التالى بعد أن رأيته واجمًا ...

- تبدو متوجسًا وأنا لا يرضينى هذا. فانظر ماذا ترى؟

- لا أبدًا ولكنى فقط أريد أن أطمئن إن كان الأمر قد تم أم يلزمنا تدخل طبى ...

طبعًا كان يكذب ....أكاد أجزم أنه يتشكك فى وجود غشاء بكارة من الأصل!!

أقسمت أمامه أنه لن يمسنى مرة أخرى إلا بعد أن نذهب لطبيب نساء يختاره هو لنحسم هذا

الأمر ...

لم يكذب خبرًا ...لم يقترب منى. وفى مساء اليوم الثالث وقبل أن نسافر إلى مطروح كنا أمام طبيب النساء الذى حدده هو ...كشف على وقال بكل وضوح أن غشائى موجود ولم يفض بعد لأنه من النوع المرن الذى لا يفض بسهولة، ولكنه لا يعوق أى علاقة و سينفض بالتكرار بعد ذلك .....يا سلام!!

كان محمود فى قمة سعادته، لم يكن يسير ونحن نمشى فى اتجاه السيارة ...كان يطير!

...سبحان الله، أراحه حكم الطبيب و طمأنه ولم يطمئن إلى سيرتى وسمعتى وصدقى معه فى كل شىء!!

حاولت أن أنسى ما حدث والتمست له العذر ...عذر أنه مصرى عربى مسلم يحمل على كتفه تراثًا عريقًا صعب التخلص منه ....عذر أربع سنوات قضاها فى الغربة لا يفعل شىء سوى أن يعمل فى الصباح. وفى المساء يجلس مع رفاقه على المقاهى يثرثرون فى شتى المواضيع، ولكن موضوعهم المفضل بلا شك – وهم فى هذا السن – هو النساء، يحكى كل عن تجربته و يرغى ويزبد. وطبعًا كان يسمع ضمن ما يسمع روايات عن فتيات فقدن عذريتهن ولم يمنعهن ذلك من الزواج إما اعتمادًا على طيبة أزواجهن أو غفلتهن أو على عمليات جراحية معروفة يجريها أطباء مشبوهون!!!

عذرت محمود. وبدأنا شهر العسل أو بالأصح أسبوع العسل .....كانت أيامًا لا بأس بها ..البحر ذو الزرقة المميزة والرمال البيضاء الناعمة والهواء النقى وظلال فيلم ليلى مراد وحسين صدقى الخالد ....شاطىء الغرام تطل علىّ من حين لآخر ...علاقة سرير لا بأس

بها تفى بالغرض، ولكنها بعيدة تمامًا عن سيناريوهاتى ...

سيناريوهاتى كان فيها رجل يتحسس كل سنتيمتر من جسدى وهو حريص على أن يثيرنى ويمتعنى. رجل يعتبر أن هذه العلاقة سيمفونية يعزف فيها طرفان من أجل الوصول إلى ذروة لا تكتمل إلا إذا شعرا بها سويًا!!

سيناريو محمود كان سيناريو لا يستطيع أحد أن يلومه عليه؛ لأنه سيناريو وموروث فى نفس الوقت ....سيناريو العزف المنفرد... سيناريو رجل يحفظ ولا يفهم ....قالوا له عليك أن تداعب زوجتك قبل الفعل الأكبر ...فَعل ولكن بدون أن يفهم و بدون أن يحس كيف؟

...قالوا أن المفروض أنْ تكون زوجتك خجولة فى هذه الليلة ويستحسن فى كل الليالى فإذا رأى غير ذلك فهذا بلا شك خطأ غير مقصود منها جاء فى لحظة إثارة قصوى وعدم سيطرة على المشاعر!

لطالما تمنيت أن أقوم بدور فى العلاقة ....أعبر عن نفسى صوتًا أوحركة مثل أى أنثى ..

لطالما اشتهيت ذلك، إلا أن ردفعله كان دائمًا يحبطنى...

لم أنفر من محمود أبدًا فى علاقتنا الحميمة، ولكنى لم أرضَ عنها مطلقًا ...

لكن واقعيتى الشديدة ووزنى للأمور بميزان دقيق لم يجعلا من عدم الرضا هذا مبرر لأن أتخذ قرارًا قد أندم عليه ...

هل كان يمكننى أن أتحدث عن شىء مثل هذا أمام ياسر؟!

تتوالى المفاجات فى حياتى ....بالأمس أفلت فى آخر لحظة من موت محقق ثم اتخذت القرار بالبقاء ميتة فى نظر البعض. ثم أسافر وأعمل فى مطبخ مطعم التقى فيه بشاب وسيم تمنيت أن أقابله فى مرحلة سابقة ...واليوم، وبعد ستة أيام من لقاء المنتدى يتصل بى سلمان جابرو يخبرنى أنه قد قرأروايتى وأعجب بها جدًا وأنه يريد أن يقابلنى لأمر هام!!

يا إلهى ...هل كان لابد لى أن أموت ليقرأ لى أحدهم ويعجب بروايتى؟

هل هذه هى الحقيقة أم أنه يجاملنى؟ أو يستدرجنى؟ هل له مآرب أخرى؟ أيًا كانت الحقيقة فإنى ذاهبة. لا أستطيع أن أفوت هذه الفرصة ...ولكن هل يأتى معى ياسر هذه المرة أيضًا؟ هل سيقبل؟

عرضت عليه الأمر فأخبرنى أنه لا يمانع ولا يمكن أبدًا أن يمانع فى الذهاب معى، ولكنه يرى أنه إذا كان لدى شك ولو واحد فى المائة فى نوايا سلمان فيجب أن يتم إغلاق هذا الملف نهائيًا، لا أن يترك معلقًا. ذهابه معى هذه المرة لن يغير من الأمر شيئًا، لن يعلن الرجل عن نواياه الحقيقية فى وجوده. لذا فقد قرر أنه سيوصلنى إلى المكان الذى اتفقت عليه مع سلمان ويتأكد أنه مكان عام وآمن،ولكنى سأدخل وحدى لأعرف ماذا يريد هذا الرجل منى بالضبط؟ أعجبت بمنطقه وقررت أن نذهب بعد انتهاء العمل.

رأيت فيما يرى النائم فى الليلة السابقة والدى وهو يجلس فى بلكونتنا الصغيرة التى تطل على الشارع أوقل الحارة كان يرتدى جلبابه الأبيض النظيف الذى كان يدخره لمناسبات مثل حضور أحد من البلد ...كان سارحًا فى خيالاته و بيده كوب من الشاى الأسود الداكن

ولا أتذكر هل كانت تبدو عليه فى الحلم علامات الحزن لأن ابنته الكبرى ترقد الآن جثة هامدة فى قاع المحيط الأطلنطى أو ربما فى بطن سمكة قرش عملاقة؟

أسأل نفسى بالفعل هذا السؤال الآن: هل حزن والدى لوفاتى؟ ...من الطبيعى والمنطقى أن يحزن أى رجل إذا ماتت ابنته، ولكنى أتسائل هل حزن هذا الحزن العميق الذى يزلزل الروح أم حزن مثلما حزن على أمى؟

عندما أسلمت أمى الروح فى هذا المستشفى الخاص الذى نقلتها إليه. لمحت – وسط انهيار إحسان ونحيب التوأم – نظرة ارتياح فى عينى أبى!! بكل تاكيد هو حزن لوفاتها على الأقل لعشرة السنين الطويلة ...ولكنى أكاد أجزم أنه قد شعر بالارتياح لأن مرضها لم يطل أكثر من ذلك. صحيح أننى تكفلت بكل مصاريف علاجها،وأننى لم أجعله يضع يده فى جيبه طوال فترة معاناتها ومعاناتنا، ولكنى أستطيع أن أدرك أن إحساسه بأنه لم يقم بمسئوليته نحوها كما يجب كان يقهره ....لذا جاء ارتياحه ...لم أكرهه من أجل ذلك فأنا عاقلة ومتفهمة وفوق ذلك روائية دارسة؛ أعرف خبايا النفس البشرية حتى وإن بلغت أكثر الدرجات تعقيدًا ....ولا ينبئك مثل خبير!

و لكن عندما جاء إلى غرفتى بعد أقل من ستة أشهر من وفاة ماما وأخبرنى أنه يريد أن يتزوج ...شعرت بالغصة والمرارة ....ألا توجد عنده ذرة وفاء – ولو حتى ظاهريًا – لهذه المسكينة التى عاشت معه على الحلوة والمرة وأنجبت له البنين والبنات ولم تتذمر يومًا أو تمتنع عن فراشه ولو مرة ؟ ألا توجد ذرة احترام لمشاعرى؟ كان يمكنه أن يؤجل

الموضوع لحين يلتئم الجرح. كان يمكن أن يجعل الأمر سريًا ثم يصارحنى تدريجيًا ....

تغاضيت عن ذلك، وأعلنت له عن مباركتى وإخوتى لهذا الزواج ...ولكن عندما بدأت الإجراءات الفعلية ....وعندما ظهرت أمواله - والتى كان يبدو أنه يدخرها خصيصًا لهذا اليوم - وأخرجها ربما من تحت البلاطة أحسست بالقهر الشديد وصعبت على نفسى .. إذا كانت الاموال موجودة يا والدى.. لماذا تركتنى إذن أنفق على تعليم إحسان والتوأم؟ لماذا تركتنى إذن أنفق على علاج أمى وعلى جنازتها وعزائها؟ لماذا يستحل أبى مالى؟ أنا لم أندم أبدًا على ما فعلته مع إخوتى ومع أمى بل إننى فخورة بذلك، ولكنى فقط أتسائل هل هذا تصرف طبيعى؟ أنا أريد أن أبرىء أبى.. سأستريح إذا حدث هذا، ولكن ليقل لى أحد إذن هل هذا تصرف طبيعى؟ أم أن والدى مضطرب سلوكيًا؟ و لو كان تصرفه هذا تصرف مرحلة بعينها لماذا إذن لم يصرف علىّ مليمًا واحدًا بعد ذلك فى جهازى؟ أخذ المهر من محمود وأشترى – بعد الحاح منى – غرفة نوم تناسب طموحاتى واكتفى بذلك وقمت أنا بشراء الباقى من مالى الخاص الذى جمعته من الدروس الخصوصية و الترجمة وسهر الليالى فى تصحيح الرسائل الساذجة والأبحاث الضعيفة ....

تزوج والدى إذن ويبدو أن هذا الرجل الذى تخاصمه الوسامة يرافقه الحظ دائمًا مع الجميلات ..كانت أمى جميلة وكذلك كانت أيضًا سعاد زوجة أبى، ولكنها كانت تختلف تمامًا عن والدتى. والدتى تميل للسمرة وسعاد بيضاء. أمى نحيلة، بل نحيلة جدًا. وسعاد ممتلئة؛ بطة بشرية!! أمى هادئة وصامتة. وسعاد إذا انفتحت فى الكلام فلا يستطيع أحد أن يوقفها .....كأنما تعمد أبى أن يأتى بمن تشعره بالتغيير التام!!

لم أكرهها. بالرغم من أنه أتى بها لتعيش وسطنا وتنام فى غرفة أمى بعد أن بدل أثاثها و دهن جدرانها ....لم أكرهها؛ فهى لم تضرب أبى على يده وتجبره على الزواج منها، ولم تدبر أى مؤامرة لتنتزعه من بيته وزوجته وأولاده ...هو الذى سعى إليها. كانت أرملة واحد من زملائه توفى فى حادثة قطار مشهورة ...

كانت لطيفة المعشر لم تحاول أن تثير معى أى مشكلة تذكر، بل على العكس كانت دائمًا تمدح أخلاقى وشطارتى وتفخر بى أمام الجيران و لن أنسى أبدًا أنها خلعت أسورة من يدها قبل زفافى بشهر وأعطتها لى لأفك "زنقتى" على حد تعبيرها! تصرف لم يصدر من إحسان أو من أبى أومن أى من التوأم!!

تزوج إذن والدى واتسعت ابتسامته و هذب شاربه وأصبح يحلق ذقنه كل يوم وعاد باب الغرفة يغلق وصرير السرير يسمع من جديد!! و بات واضحًا ًن والدى هوالمستفيد الوحيد من وفاة أمى!!

أتسائل إذن مرة أخرى ..هل حزن والدى على وفاتى؟ هل أظلمه؟ بينما الحقيقة هى أنه يمتلك قلبًا رقيقًا أوقلب مثل قلوب معظم البشر، ولكنه لا يعرف كيف يعبرعن أحاسيس تملأ هذا القلب؟ هل عندما تزوج بعد وفاة أمى بفترة قصيرة كان عمليًا أكثر من اللازم فأدرك أن الحياة لابد أن تستمر وأن المتبقى من العمر لا يسمح بطول انتظار ولم يسعفه تعليمه البسيط أن يراعى بقليل من التفكير والتدبر مشاعر الأخرين؟

هل أنا أظلمه، وأنه لم يكن يدخر هذا المال لزواجه ولكن المال أتاه فقط متأخرًا وفى هذا

التوقيت بالذات؟

هل أنا أظلمه أم أن والدى بالفعل سبب من أسباب إحباطى وكراهيتى لحياتى لدرجة أني أُفضل أن أظل ميتة فى نظر كل من عرفونى؟

فى تمام السابعة مساءً كنت وياسر أمام البناية المطلوبة. استفسر ياسر وعرف أن الشقة المقصودة ليست سكنًا خاصًا، ولكنه قد يكون مكتبًا أو مقر تجمع أو شيء من هذا القبيل. وكما اتفقنا لم يصعد معى وقال لى: لآخر مرة عند شعورك بأى عدم ارتياح اتصلى بى وسأحضر فى ثوانى!!

فتح لى سلمان الباب ورحب بى ترحيبًا كبيرًا وقال:

- لم أشأ أن يكون لقاءنا اليوم فى المنتدى العربى فأنا أعلم مدى الزحام هناك. هنا نستطيع أن نتكلم بحرية أكبر..وعلى فكرة سكرتيرتى مسز أوليفيا موجودة بالمكتب فلا داعى لنظرات الشك التى أراها فى عينيك!

دخلت غرفة مكتبه بعد أن ألقيت السلام على أوليفيا التى بنظرة واحدة تفحصتنى من الألف للياء ..كانت سيدة أربعينية بها مسحة من جمال ورشاقة واضحة وثقل ظل أوضح!

- نحن فى انتظار الشاى المصرى أبي نعناع الذى سيأتى حالًا وإلى أن يأتى أحب أن أخبرك أننى قد قرأت روايتك – وهاهى مطبوعة – فرغت منها فى يومين فقط ولولا انشغالى ببعض الأعمال لانتهيت منها فى يوم واحد ....ما هذا الجمال، أسلوب رشيق و سريع وشيق وجديد و طرقت موضوعًا لم يطرقه أحد قبلك وطريقة التناول جديدة على

الرواية العربية ....من أنت بالظبط؟لا تقنعينى أنك خريجة آداب وهاوية للأدب و تعملين فى مطبخ مطعم طلبًا للتغيير ....من أنت يامدام دينا؟ أرجو أن تفتحى لى قلبك و تأكدى أن أى شىء ستبوحين لى به سيظل طى الكتمان ...

تباطأت فى الإجابة..... تعلمت هذه الطريقة من محمود.عندما أفاجئه بسؤال غير متوقع يتباطأ فى الإجابة ليجد الرد الملائم أو بالأصح ليبحث عن كذبة ...قبل أن أقابل محمود كنت أجاوب بسرعة وتلقائيًا على أى سؤال..الآن تعلمت أن أتأنى ..

- سيدى الفاضل.. أكيد لديك مصحف هنا؟
- نعم هاهو ...
- أقسم بالله أننى ليس ورائى أى مشكلة؛ لست هاربة من الشرطة أو أقيم بصفة غير شرعية فى بريطانيا أوعلىّ مثلا حكم بالطاعة ....فقط هناك أمور شخصية أخفيها ولن يضر أحد ذلك ....نعود للرواية إذن ...

- أنا أصدقك يا دينا، ولكن لا تقولى لى أن رواية مثل هذه تصدر من هاوية ...

- أفهم ما تقصد، ولكن هاهو المصحف مرة أخرى...أقسم عليه أننى لم أسرق هذه الرواية وأنها من بنات أفكارى وحدى، وأحتفظ بنسخة بخط يدى منها فى القاهرة!!

- لا سمح الله، لم أقصد هذا، ولكن على العموم.. خلاص، دعينا نتكلم فى المهم ...

هاهو الشاى قد حضر ...

جاء رجل هندى قصير القامة وقدم إبريقًا من الشاى وأكوابًا صغيرة. ملأ لى سلمان كوبًا وسألنى عن السكر فقلت ملعقة واحدة ...

- كان يجب ألا أسأل. رشاقتك هذه تدل على أنك لا تضيفى إلا القليل منه..

- متشكرة.
ارتشفت من الشاى وكذلك فعل هو ..استأذن فى إشعال سيجارة ولم يعرض على واحدة لا أدرى لماذا؟ ...قال وهو ينفث الدخان:

- أنا والدكتور فهيم صديقان منذ الطفولة. هربنا من جحيم صدام حسين بأعجوبة بعد هوجة عاصفة الصحراء و بمغامرة تشبه كثيرًا أفلام هوليوود ...

أنا كنت مسئولًا فى كيان يشبه وزارة الثقافة أو الأعلام عندكم فى مصر، ولم أشأ أن أكمل حياتى وأنا أعيش فى أكذوبة كبيرة. أما الدكتور فهيم فهو جراح معروف فى العراق وكان يمكنه أن يتبوأ المناصب العليا لوأراد، ولكنه أيضًا فضل الموت أو النفى على أن يعيش فى العراق مكبلًا بالقيود أو كجزء من نظام استبدادى ....كان لنا اهتماماتنا الأدبية منذ كنا فتيانًا يحدونا الأمل فى مستقبل مشرق ...كانت لى محاولات كثيرة فى المسرحية والشعر و الرواية والقصة القصيرة ...و كنت مشهورًا، ولكن فى حدود ضيقة.. فقط بين المثقفين ..أما الدكتور فهيم فقد كان ولا زال متذوقًا عظيمًا لكل الفنون؛ تجدينه فى معارض الرسم والنحت ومنتديات الأدب. حريص على متابعة السينما المصرية والعالمية،ويداوم على الأوبرا والباليه ...هو مثقف بحق ..

جمعتنا الغربة من جديد وجمعنا أيضًا الخوف ....نحن نعيش هنا ونتوقع كل يوم أن يرسل إلينا صدام من يقتلنا لكى نكون عبرة لكل من يحاول الهروب. مع أننا لا نعمل بالسياسة ولا نحاول أن نقوم هنا بأى دور معارض لأننا ببساطة نؤمن أن نظام صدام سيسقط لا محالة و

أن المسألة مسألة وقت ...المهم تحايلنا طبعًا لنستطيع أن نعيش هنا ومرت علينا أيام سوداء نعانى من شظف العيش ومرارة الغربة، ولكن الله سبحانه وتعالى فرجها من عنده عندما استطاع فهيم أن يعمل هنا فى مهنته وبعد أن التقطنى هنا واحد من أثرياء الخليج استطاع أن يجد فىّ ما يمكن أن يستفيد منه. وبدأت الأيام تصفو لنا ....

طبعًا، خلال هذه الفترة تعرفنا على الكثير من الناس، ومن كافة الجنسيات وأصبحت لنا علاقات متشابكة سواء فى المجتمع الإنجليزى أو مع الجالية العربية هنا. وأنا لن أطيل عليك وسأتكلم عن نفسى وليس عن الدكتور فهيم. أنا لست ملاكًا، أنا تحايلت هنا كثيرًا لأعيش وأكسب المال فكما يقولون: المال فى الغربة وطن والفقر فى الوطن غربة!!

لم أسرق ولم أنصب على أحد، ولكنى لا أستطيع أن أقول أن ضميرى مستريح مائة بالمائة فقد نافقت كثيرًا... كثيرًا إلى حد التقزز، نافقت بعضًا ممن كنت أكن لهم عظيم الاحتقار ...و لكن للضرورة أحكام. كان لا بد أن أفعل ذلك لأستطيع أن أعيش وأربى أولادى الذين لا ذنب لهم أننى أنجبتهم فى ظل هذا النظام المجرم، ولا ذنب لهم لأننى هربت بهم إلى غربة لا مكان فيها لضعيف أو فقير ...

مرة أخرى لن أطيل عليك ....تعرفت هنا على أميرة عربية هى الأميرة العنود....

تعيش فى لندن منذ فترة ليست بالقصيرة والتى قررت أن يكون هنا وطنها الثانى ...هى جميلة بلا شك وتعرف جيدًا أنها بحكم جمالها وثرائها محط أنظار الجميع، ولكن يبدو أن لها طموحات أخرى كبيرة؛ طموحات لها ولبلدها الذى يحاول الآن أن يطفو على السطح و أن يقوم بدور قد يكون أكبر من حجمه ...هى لها اهتمام خاص بالآداب والفنون عامة وقد

– والله أعلم – يكون لها موهبة ما فى الكتابة ..و فى أحدى لقاءاتى معها دهشت كما ستدهشين أنت الآن أيضًا بأنها تطلب منى أن أبحث لها – وأنا فى نظرها الخبير بالأدب والأدباء – عن رواية عظيمة ودسمة – على حد تعبيرها – لأديب أو الأفضل أديبة من غير المشهورين تشتريها وتقدم بها نفسها للقارىء العربى والأوساط الأدبية ...

لاحظ الأستاذ سلمان أننى قد اعتدلت فى جلستى وجحظت عيناى و بدوت فى حالة ذهول

- ألم أقل لك انك ستدهشين. كذلك كانت حالتى عندما سمعت منها هذا، والغريبة أن الأميرة لم تشعر وقتها أنها قد نطقت بشىء غريب أوغير مالوف، بل استمرت فى حديثها وراحت تؤكد لى على ضرورة أن يتم هذا فى المستقبل القريب لأنها تريد أن تدشن العام الجديد بل والألفية الجديدة باطلاق روايتها ...يبقى الجزء الأخير من كلامى وهو الجزء الأهم ...قالت الأميرة أنها لو أعجبتها الرواية فستدفع لصاحبها خمسين ألف جنيه.....

إسترلينى!!!

اعتدلت أكثر فى جلستى حتى صرت على وشك أن أضع ساقى على مكتب سلمان!!!

وتحول جسدى كله إلى أذن فقط تستمع إليه!!

- وطبعًا أنا عمولتى محفوظة، ثم استطردت وقالت، ولكنى لابد أن ألتقى بصاحب أو بصاحبة الرواية سيجلس معى ويروى لى كيف كتب روايتهوما هى الخلفية النفسية لأبطالها و مدى مطابقة شخصيات وأحداث الرواية للواقع وكل هذه الأسئلة التى دائمًا ما يسألونها لكاتب رواية ...

أعرف أن المفاجأة كبيرة... الصدفة وحدها هى التى قادتنى إلى هذا المطعم لألتقى بك و الصدفة وحدها هى التى جعلتك تتدخلين فى حديثى مع فهيم فأعرف اهتمامك بالأدب.

والصدفة وحدها هى التى جعلتنى أسألك إن كنت تكتبين وهى وحدها التى جعلتك تحملين معك السى دى فآخذه وأقرأ روايتك وأجد أنها لا بد ستحوذ على إعجاب الأميرة، بل إنها ستجن من الفرح عندما تعلم أن صاحبتها أديبة وليست أديب، فالأسلوب النسائى يختلف عن أسلوب الرجال لذا فستكون اللعبة محبوكة أكثر ....أعتقد أننى قد عثرت على الرواية المناسبة والشخص المناسب ....وأنت حصلت على فرصة عمرك ...لن أنتظر منك رد الآن، ولكنى سأعطيك ثمانية وأربعين ساعة للتفكير ولا تتسرعى فى الرد. لم تعد الحياة أبيض أو أسود. اللون الرمادى سائد الآن ...أعلم أنك تستحقين أن تنشرى إبداعك باسمك وأن تنالى ما تستحقين، ولكن تذكرى أيضًا أنك تستحقين ألا تضطرى للعمل فى مطبخ مطعم ....تستحقين أن تعيشى حياة كريمة لتبدعى أكثر وأكثر ...

خرجت من مكتب سلمان وأنا أشعر أن رأسى قد أصبح ورشة كبيرة تدور فيها ماكينات عملاقة ينتج عنها ضوضاء لا تحتمل ....لم أدرِ بنفسى إلا وأنا فى الشارع وياسر ينادينى وأنا أسمعه ولا أسمعه ...

لم يقبل بأن يعود إلى مسكنه ويتركنى هنا. قرر أن ينتظرنى لنعود سويًا ...

لم أرد بعد أول نداء، فركض خلفى وأمسكنى من ذراعى ....عند ذلك فقط أفقت من تفكيرى. سألنى أكثر من مرة عما بى وعندما تكرر سؤاله قلت: ياسر.. سأحكى لك كل شىء فيما بعد، ولكن بالله عليك هيا بنا نعود الآن لأن رأسى يكاد ينفجر ...

لم أستطع أن أنام تلك الليلة ....لجأت للكالميبام ...و تمامًا مثل ليلة وفاتى ...أقصد ليلة سقوط الطائرة. رأيت أطيافًا و خيالات لا تعد ولا تحصى... لم يكن نومًا.. كنت مستيقظة، و لكننى كنت أحلم ....هكذا يفعل الكالميبام معى!!

استيقظت منهكة..... صنعت لنفسى كوبًا كبيرًا من النسكافيه وتخيلت أننى أدخن سيجارة و رحت أسترجع ما حدث ...تتوالى المفاجأت فى حياتى ....هاهو عرض بخمسين ألف جنيه استرلينى؛ أى حوالى نصف مليون جنيه مصرى!! لأتنازل عن رواية عزيزة على قلبى ..سهرت الليالى مع أبطالها ....أنطقهم بكلماتى وأفكارى.... ليالى وأنا أحلم بهم و أحاول أن أجعلهم أشخاصًا حقيقيين بقدر الإمكان ....ليالى طويلة أكتب وأشطب ثم أطبع على الكمبيوتر ....أمحو شخصية من الرواية نهائيًا وأضيف أخرى، أتحكم فى مصير البطل أو البطلة وأغير النهايات كما أشاء ...

عندما أكتب رواية....أعيش تمامًا فى أحداثها، وأكاد أنفصل تمامًا عن الواقع ...وقت كتابة رواية أتحول إلى شخصية أخرى تمامًا...شخصية شاردة، مشوشة التفكير، لا تبالى بشىء مما يجرى حولها، فكل تفكيرى يكون فى الرواية ...وعندما أصل إلى الحبكة، وأرى الحوارات والأحداث تجرى على الورق الأبيض ....أعيش أسعد لحظات حياتى ...نصف مليون جنيه لأتخلى عن إبداعى وتتحلى به أخرى لم تشأ حتى أن تحاول الإبداع!!

يا إلهى ...ما أصعب هذا الاختبار ...أكتب الرواية منذ أكثر من عشرين عامًا وتمنيت أن أعيش لحظة أن أرى عملًا لى منشورًا و يقرأه الناس ....كان يمكننى أن أنشر، ولكن كان

على أن أضحى بالكثير ....أنافق، ألح أو أتنازل ....كنت أرفض وكنت أنتظر فرصتى ...و عندما قرأ لى الغرب وأعجبه ما أكتب، قيل لى وقتها ...لا تفرحى، هم يعجبهم ما تكتبين لأنك تعبرين فى كتاباتك عن رفضك لمجتمعك وهذا بالضبط ما يريدونه وكلما عبرت عن رفضك كلما أعجبوا بك أكثر ...انسِ أن تكونى قد لفتت نظرهم لموهبتك أو تميزك ...لم أدرِ وقتها هل هذه هى الحقيقة أم هى غيرة ورغبة فى تدمير الناجح كما اعتدنا فى مصر ...أنا لم أرفض مجتمعى فى كتاباتى. أنا انتقدته ذاتيًا مثل أى كاتب فى أى مكان فى الدنيا ....لم أسخر من دينى أو من تراثى ...فقط انتقدت الجمود والتحجر و الاتباع الأعمى ...عندما أردت أن أعرف الحقيقة سألت باربرا- وأنا أعلم أنها لا تنافق أبدًا - فأجابتنى بكل وضوح أننى موهوبة وأن كتاباتى تعجبها وتعجب كل الطلبة ..

كان لاهتمام الغرب بما أكتب مردودًا ماليًا لا بأس به. وكان أخره هذا العمل الذى أسند إلىّ فى نيويورك، وهذا ما جعلنى أنسى أو أتناسى فكرة أن أنشر فى بلادى وباللغة العربية .. و اليوم تجىء الفرصة ....ستنشر روايتى – و بعد أقل من شهرين ربما – و لكن باسم واحدة أخرى ...

المبلغ كبير وأنا أجيد التصرف فى المال يمكننى أن أفعل الكثير ....المال يفتح الأبواب المغلقة ...ولكن هل من الممكن أن أحتمل صدمة أن أرى روايتى منشورة باسم غيرى؟ واحدة أخرى تتباهى بها و يناقشها النقاد فيها وتستضيفها الفضائيات و تشيد بإبداعها ....هل سأتحمل ذلك؟

ترى ماذا سيكون رأى ياسر إذا كلمته عن هذا العرض؟

لو عرضت الأمر على محمود سيوافق على الفور ...لم يقتنع أبدًا أننى موهوبة. أعلم أنه لا ناقةله ولا جمل فى مسألة الأدب، ولكن أحيانًا كنت ألح عليه أن يقرأ إحدى رواياتى. كان بالكاد ينتهى منها وعندما أسأله عن رأيه يقول: مش بطالة ...ولكن دائمًا له ملحوظة لا يغيرها: أليست إباحية أكثر من اللازم!! وملحوظة أخرى: لماذا تبدو بطلاتك دائمًا غريبات الأطوار؟ هو يعتبر أى أنثى تشذ عن ناموس شقيقتيه وأمه غريبة الأطوار لماذا تزوجنى إذن وهو يعرف أننى أختلف تمامًا عن أمه وأخته وبقية عائلته؟

أنا متأكدة.... كان سيوافق...

بعد عام من زواجنا ....وبعد أن أصبح كل منا مكشوفًا تمامًا أمام الآخر بعيوبه وحسناته...كتاب مفتوح ...لم يعد محمود يدارى الأمر. أفصح تمامًا عن ذاته ...أصبح يتكلم بوضوح تام عن ضرورة أن يكون لكل منا ذمته المالية المنفصلة ...أنا – لسذاجتى – ظننت أنه يعنى بهذا أن يكون مالى ملكًا لى ولا يدخل فى ميزانية البيت ...لكنه كان يقصد شيئًا آخر ...كان يقصد أن أنفق على نفسى فيما يختص بنفسى ....ملابسى، مواصلاتى، ماكياجى،علاجى، مجاملاتى. تصورت وقتها أن تكاليف زواجنا ربما استنزفت مدخراته فلا مانع من أن أتحمل مسئوليات نفسى إلى حين، ولكننى فوجئت، وبعد أن أفاض الله عليه خيرًا كثيرًا وأصبحنا نعيش فى بحبوحة من العيش،وبعد أن كبر محل قطع غيار السيارات وبعد أن توسعت الشركة ووثق فيه الكفيل وأصبح ساعده الأيمن، بل الوحيد.

بعد كل ذلك فوجئت بأنهلم يتغير من الأمر شيء ...مازلت أتحمل مسئولية نفسى ...كان من المألوف فى نهاية كل شهر أن أجد محمود ممسكًا بدفتر كبير يراجع أوراقه ثم يعطينى كشف حساب لما يتحتم على دفعه بمجرد أن أقبض المرتب ...عشرة جنيه دفعتهم لأملأ سيارتك بالوقود يوم الأثنين قبل الماضى.ثلاثون جنيه ثمن هدية عيد ميلاد أحمد ابن أختك. ستة جنيهات ثمن فوطك الصحية!! متى إذن أحس أننى أنثى ينفق عليها رجلها مثل بقية خلق الله لم يصرف على والدى منذ كنت فى الخامسة عشرة ..و الآن زوجى!!

و فى أحد الأيام، وكنت قد انتهيت لتوى من المشاركة فى كتابة مذكرات للطلبة وقبضت مبلغًا لا بأس به فوجئت به يطلب منى إعطائه هذا المبلغ ليشغله لى فى السوق. والغريب أننى لم أرفض. أعطيته بلا قيد ولا شرط ..بعدها بشهرين أوأكثر قليلًا أعطانى مبلغًا صغيرًا قائلًا لى: هذا ربحك ....بعد ذلك لم أرَ لا أرباح ولا اصل رأس المال!! عرفت يومها طبيعة الرجل الذى أعيش معه وأدركت بعد ذلك أن على أن أحترس ...ولست أدرى ما الذى جعلنى أفكر ذات يوم فى أننى إذا أصابنى مكروه فى يوم من الأيام ...مرض... حادث ...أى شيء.. فقد أضطر أن أعطى توكيلًا لمحمود ...ارتعدت وقتها من فكرة أن يستغل هذا التوكيل ويستولى على كل ما أملك ولذلك وعندما كنت فى نيويورك، وكنت أتحصل على مبلغ كبير شهريًا، لم أحول مليمًا واحدًا إلى حسابى فى مصر. أودعت إيرادى فى بنك أمريكى فى نيو يورك ثم سحبته كله قبل العودة. وهذا هو المال الذى أحتفظ به الآن أسفل دولابى فى غرفتى فى الفندق. إذن فمحمود الآن ، وبعد أن يثبت وفاتى بطريقة أو بأخرى. و بعد أن يصدر إعلام الوراثة ويتوجه للبنك للتحفظ على ما

أملك لن يجد إلا مبلغ تافه احتفظت به للبقاء على حسابى مفتوحًا!!يا لها من مفاجاة.

....تذكرت هذا فشعرت بلذة تفوق الوصف، ولكن ما أنقص من هذه اللذة هو تفكيرى بأن هناك احتمال أن يأخذ تعويضًا من شركة الطيران عن وفاتى!! يا خسارة!

نصف مليون إذن لأبيع جزءًا من نفسى ...ولكن لننظر للموضوع من زاوية أخرى ..على أى حال أنا لم أنشر أى رواية حتى الآن وغير وارد ذلك فى المستقبل القريب خاصة بعد مسألة وفاتى ..فلماذا إذن لا يرى عمل من أعمالى النور، ويقرأه الناس ويستمتعون به حتى وإن كان باسم غيرى؟؟ أليس ذلك أفضل من أن يظل حبيس الأدراج؟ ثم ما الذى سيضيرنىوأنا لدى روايات أخرى وأستطيع بسهولة أن أكتب رواية فى الوقت الذى أريده.

لقد أرسل لى الله من يسرق موبايلى لينقذنى من الموت وهاهو سبحانه وتعالى الآن يضع سلمان ومرزوق فى طريقى ليضع فى جيبى نصف مليون جنيه!! كيف لا أستغل هذه الفرصة ...لقد استطعت خلال حياتى وبقليل من المال أن أسعد الكثير من الناس وأؤثر فى حياتهم ....أختى والتوأم وأمى وأبى وآخرين ...فكيف وأنا أملك المال الوفير. مال نيويورك ومال الأميرة ...أكيد هنالك متعًا كثيرة يمكننى أن أتذوقها. أكيد أنه باستطاعتى أن أفعل الكثير لنفسى وللناس ...

تنهد ياسر عندما رأنى أمامه فى المطبخ ....فهمت منه أنه كان ينتظرنى على نار؛ لأنه يريد أن يعرف ما الذى حدث بالأمس .....حكيت له كل شىء بالتفصيل بعد أن وعدنى ألا يذكر ما سمع أمام أى مخلوق ..

رأيت كل علامات التعجب والاستفهام على وجهه ...لم ينطق بكلمة، ولكن خبأ وجهه بين

كفيه بعد أن توقف عن تقشير البطاطس بينما أنا أتكلم وأقشر البطاطس فى نفس الوقت!

- وماذا تنوين أن تفعلى؟
- أنت ما رأيك؟
- لست أدرى، أنا لم أكتب الرواية ولا الشعر ولا أعرف كيف تكون صلة إنسان بما يبدع ...ولكنى مثلًا.. لو أن لى اكتشاف أو اختراع وأخذه سين من الناس ووضع اسمه عليه ...أعتقد أنها ستكون صدمة كبيرة لى قد لا أتحملها!!

- أنا سعيدة لأن هذا رأيك، ولكن فارق عشر سنوات فى العمر بينى وبينك يجعلنى أرى اللون الرمادى بمساحة أكبر ...على العموم مازال أمامنا بعض الوقت للتفكير ..

- دينا.. لا أزعم أننى أفهم كثيرًا فى الأدب، ولكن دعينى أقرأ روايتك؛ على الأقل لأرى هذا الشىء الذى يدفع فيه البعض نصف مليون جنيه!
- حاضر.... هذا شىء يسعدنى ...

خرجنا خلال الاستراحة. أكلنا الأيس كريم ودخنا سجائرنا. تلامست أيدينا بقصد أو بدون. حاد مسار الكلام بيننا وطرقنا مواضيع شائكة لم أتخيل أن أطرقها معه، وفى هذا التوقيت بالذات ...لماذا تشجعت؟ هل لشعورى بأن ياسر مختلف عن محمود؟ ما زال بريئًا ...لم تفسده الحياة بعد؟

كان سيرنا فى هذا الشارع الكبير القريب من مطعمنا ممتعًا ومبهجًا. أعاد لى أيام شبابى المبكر وأحلام مراهقتى....أحلام اليقظة وأحلام المنام ...يبدو لى الأمر كله الآن كحلم... حلم طويل وغريب منذ ليلة سقوط الطائرة وحتى هذه اللحظة ...

عندما عدت إلى الفندق وبعد أن جلست قليلًا مع مسز فلورانس داعبنى النعاس

فصعدت إلى غرفتى وجدت أننى لا بد أن أرد على سلمان. توصلت إلى رد مناسب. رد يرضينى؛ صيغة تحفظ لى بينى وبين نفسى شىء من ماء الوجه ...بصراحة أكثر صيغة أخدع بها نفسى فأتقبل ما أفعله ...

لم أنتظر حتى يتصل سلمان اتصلت به عصر اليوم التالى ..

- أستاذ سلمان، أنا موافقة ولكن لى بعض التحفظات ...مفيدة للأميرة ومشروعها وليس لى أنا شخصيًا ...أولًا: إذا أرادت الأميرة رواية تلفت الأنظار وتحقق الغرض المطلوب فأنا عندى طلبها ....رواية ليلة صيف باردة ومع أنها أعجبتك إلا أن لى عليها ملحوظات الرواية كما رأيت مصرية بحتة الأحداث والحوارات غارقة فى المحلية المصرية ولن يصدق أحد أن أميرة عربية ثرية يمكن أن تكتب رواية مثل هذه ...ولكن رواية أجمل الأيام أقل محلية ويمكن أن تحدث فى أى مجتمع عربى وليس فيها أى إشارة إلى أحداث بعينها؛ لذا أرى أنها الأنسب ....التحفظ الثانى هو رجاء..... رجاء ألا يتم تغيير أى شىء فى الرواية ...لا فى الحوار ولا الأحداث ولا الشخصيات؛ لأنه باختصار شديد الرواية مميزة بسبب تناسق وانسجام مقوماتها سويًا فإذا أخللنا بهذا الانسجام فقدت الرواية أى معنى لها. إذا وافقت سيادتك على هذه التحفظات فسأحضر لك غدًا سى دى رواية أجمل الأيام. ما رأيك؟

قال سلمان بدون أى تردد:

- أوافق من حيث المبدأ فقطلأننى لابد أن أقرأ الرواية. ربما لن أحبها كما أحببت ليلة

صيف ...ولكن إذا أعجبتنى فسأعرضها على الأميرة على الفور على أنها الرواية التى حدثتها عنها ..ماشى؟

- فى تمام السابعة من مساء باكر سيكون السى دى عندك.

لست أدرى كيف واتتنى هذه الفكرة الشيطانية ..، لم أرضَ أبدا عن رواية أجمل الأيام و حاولت كثيرًا أن أعدل فيها على الأقل أعدل فى نهايتها، ولكن عندما قرأها بعض من طلبتى سواء فى القاهرة أو نيويورك أعجبوا جدًا بها. وفى استطلاع رأى بسيط حازت النهاية على رضا الأغلبية، ووجدت أن الذين استمتعوا بالرواية أكثرهم المراهقون. وهذا ما جعلنى أتحفظ عليها. لا بأس إذن أن أضحى بهذه الرواية ..ماذا حتى لو شطبتها من سجل أعمالى ...أنا أعلم أن مثل هذه الرواية ستعجب قارئة من طراز الأميرة لو كانت كما أظن. ثانيًا: يدور فى هذه الرواية حوار طويل بين البطلة و بين رئيس قسم فى كلية الآداب ...هذا الحوار هو نسخة طبق الأصل من حوار دار بينى وبين رئيس قسم حقيقى وفى الحياة الحقيقية. وأنا على ثقة أن هذا الأستاذ مطلع لحظة بلحظة على كل ما يصدر فى سوق الكتاب العربى، وأكيد سيلفت انتباهه رواية كتبتها أميرة عربية من نفس البلد الذى أعير له لسنوات!! و عند قرائته للرواية سيطلع على الحوار الذى لا أعتقد أنه من الممكن أن ينساه ذات يوم لأنه انتهى بأن قال لى: المقابلة انتهت يا دكتورة!!

سيكتشف إذن و بكل سهولة وأيضًا من أسلوب الرواية الذى طالما انتقدنى بسببه أن كاتبة الرواية لابد أن تكون أنا!! لأنه لم يكن فى غرفة مكتبه يومها أحد غيرنا. وحتى لو أننى أوصلت هذا الحوار لأحد فكيف يصل للأميرة؟ وكيف يتطابق الحوار وأيضًا أسلوب

الكتابة؟

هى إذن خدعة بسيطة تضمن لى حقى وقت اللزوم..... وقت اللزوم فقط .....هل أنا شريرة؟

قرأ سلمان الرواية والغريب أنه أعجب بها جدًا وقال أنها بالفعل أفضل من ليلة صيف باردة، والأعجب هو أنه سرعان ما قدمها للعنود التى قرأتها بدورها وعلى حسب روايته أنها قالت بعد أن قرأتها: هى دى!!

و بسرعة تم تحديد موعد للقائى مع العنود ...استعددت للقاء تمام الاستعداد؛ اشتريت فستان باهظ الثمن وشديد الأناقة من واحد من أكثر محلات لندن شهرة واشتريت معه ما يلزمه من حذاء وحقيبة ومعطف. تكلفت الكثير ولكن ما قيمة هذا وأنا ذاهبة لأمسك بيدى نصف مليون جنيه؟ ما قيمة هذا وأنا ذاهبة للقاء أميرة؟ أميرة حقيقية ...صحيح هى أميرة وأنا ابنة سائق قطار، ولكنى لا بد أن أكون على الأقل على مستوى من الأناقة مقارب لها. كرامتى تحتم على ذلك.

استدعيت سيارة تاكسى وقلت للسائق بكل فخر: إلى ماى فير ...الحى الراقى فى لندن!

ما كان يؤرقنى وأنا فى التاكسى هو أننى قد أضطر إلى الأفصاح عن شخصيتى الحقيقية. مثلًا، إذا كتبوا لى شيك بقيمة المبلغ فلابد أن يكون الاسم فى الشيك مطابق للاسم فى جواز السفر ...لا بد إذن أن أذكر اسمى الحقيقى ولابد أن أبحث عن سبب وجيه جعلنى أغير اسمى إلى دينا .....على العموم لا شىء يهم. حتى لو عرفوا اسمى الحقيقى. من الصعب

جدًا أن يعرفوا مسألة وفاتى فى حادثة الطائرة ...من يتذكر أى شىء فى هذه الأيام؟

توقفت السيارة أمام العنوان الذى أملاه على الأستاذ سلمان. أعطيت السائق أجره ونفحته بقشيشًا محترمًا يليق بنصف مليونيرة!!

دققت جرس باب الشقة. فتحت لى فتاة تبدو فيليبينية ترتدى زيًا ورديًا ينبىء عن وظيفتها رحبت بى وقالت: مسز دينا أليس كذلك؟

- نعم

دخلت الشقة: فخامة وجدران عالية ومرايا ضخمة وثريات متلألئة. بذخ بلا حدود!

تصورت أن الأميرة التى تختار لندن وطنًا ثانيًا لها ستحاول أن تخرج عن الإطار الذى ولدت لتجد نفسها فيه ستحاول أن تكون أبسط من ذلك، ولكن يبدو أنها حملت وطنها و بيئتها معها إلى هنا!!

رحت أرتشف من عصير المانجو الذى لم أذق أجمل منه فى حياتى ....دخلت الأميرة. وجدتها أمامى من دون أن أسمع لخطوتها أى صوت ....أميرة بحق.... جميلة؟ نعم...بل جميلة جدًا؛ عينان واسعتان بطبيعتهما وليس بسبب كحل مبالغ فيه ...بشرة بيضاء...ظننت خطأ أن أميرات هذه العائلة المالكة سمروات مثل أمرائها!! طويلة القامة... نحيفة مع امتلاء بسيطفى أماكن يستحب فيها ذلك ....كانت ترتدى زيهن التقليدى ....العباءة ...ولكن أى عباءة ....ليتنى أعرف من أين اشترتها أو فصلتها ليكون لى مثلها ...على اعتبار أننى قريبًا سأكون ثرية!! قدرت أن تكون فى مثل عمرى أو أصغر قليلًا ...

قالت بصوت عالى و بلهجة ودودة ومصرية مائة بالمائة:

- مواعيدك مظبوطة جدًا يا مدام دينا...

- أكيد يا فندم.... فوالدى كان سائق قطار!!

لست أدرى ما الذى جعلنى أنطق بهذه العبارة؟ طوال حياتى كنت أتحاشى ذكر هذه الحقيقة لم أنكرها أبدًا. فقط لم أكن أحب ذكرها خاصة أمام زميلاتى فى الكلية واللاتى كان لآبائهن

مهن أخرى ...مهن لا يترددن فى ذكرها ..

لماذا ذكرت الحقيقة اليوم مع أن أحدًا لم يسألنى؟ النفس البشرية لها خبايا والتفافات و طرق جانبية وأعماق ....هل قلت هذا وبفخر. كأنما أقول لنفسى هاهى ابنة سائق القطار تأتى بإبداعها وبثمرة تعبها لتعطيه لأميرة لم يشفع لها لقبها ونسبها ومالها أن يكون لها شىء من موهبتى؟ هل قلت هذا ليكون بمثابة إعلان منى بأننى قد أنهيت حياة لم أرضَ عنها كثيرًا لأبدأ حياة لا مجال فيها للخجل من أشياء لم يكن لى يد فيها؟ لست أدرى .. بعد حديث حاولت فيه بذكاء أن تعرف مع من تتحدث ولم تظفر منى بما يرضى غريزة الفضول لدى المرأة قالت العنود:

- لندخل فى المهم، أولا لا أحب أن تأخذى عنى انطباع تقليدى ..أميرة عربية خاوية من داخلها تريد أن تقتحم عالمًا جديدًا تشغل فيه وقت فراغها وتحيط نفسها بهالة إعلامية ترضى غرورها ...لا ..الموضوع ليس كذلك....حياتى لم تكن أبدًا حياة سهلة وتقليدية و فارغة.... لا....حياتى فيها ما يروى ...ولا تظنى أننى عاطلة تمامًا من أى موهبة ... ...لا..أستطيع أن أفعل أشياءً كثيرة ذات قيمة وفى مجالات عديدة، ولكن المسألة أننى أفكر

فى شىء للمدى البعيد شىء ربما لو ذكرته لك الآن لن تفهميهأو ربما تفهمينه بطريقة غير صحيحة ...أردت أن أخبرك بهذا حتى نفهم بعضنا البعض ونستطيع أن نتعاون..

- نعم حضرتك...ومن أجل هذا الهدفأحب أنا أيضًا أن أخبرك أننى لست "تاجرة مواهب" استطاع الأستاذ سلمان أن يلتقطنى و يقنعنى بالفكرة ...نعم المبلغ كبير ويغرى أى أحد، ولكن الحقيقة أننى لست فقيرة جدًا أو بالأصح لست بحاجة ماسة لهذا المبلغ، ولكن المسألة أن روايتى هذه كانت ستظل حبيسة الأدراج، فلماذا لا ترى النور حتى ولو بغير اسمى؟

- أخشى أن تغيرى رأيك بعد نشر الرواية، وأنا لا أحب المشاكل ..فإن كنت غير مقتنعة فلا داعى ...لأننى سآخذ ضماناتى كاملةإذا وافقت ...

- لا مجال لأن أغير رأيى. وخذى كل ضماناتك وأحب أن أخبرك أننى قد أعطيتك أقل رواياتى شبهًا بأسلوبى حتى إذا نشرت لى رواية ذات يوم لا يكون هناك مجال للشبهة

- اتفقنا ...سيأتى الآن الأستاذ سلمان ليشهد على اتفاقناوبعد ذلك سنجلس سويًا لنقوم بتشريح الرواية وشخصياتها.

تحدثنا بعد ذلك فى مواضيع مختلفة تناولت حياتى وحياتها ...عرفت منها أنها متزوجة وغير متزوجة!! متزوجة ولها أطفال من زوجها الأمير ولكنهما لم يندمجا ...و بما أن طلاقهما صعب. على الأقل فى الوقت الحاضرفكان من الأفضل لهما أن ينفصلا حتى يجدا حلًا يرضى جميع الأطراف....ومنذ هذا الانفصال هى تحاول أن تشغل وقتها بما يفيد.

أدركت أنا بحاستى الأنثوية وغريزتى الروائية أن الموضوع أكبر من ذلك وأن شخصية الأمير زوجها هى مفتاح السر وحل اللغز!!

وصل الأستاذ سلمان فى الوقت المناسب. وصل قبل أن أسترسل فى حكايات من هنا وهناك. ربما كانت ستؤدى فى النهاية إلى أن تعرف الأميرة ما لا ينبغى أن تعرفه!!

وصل سلمان ومعه حقيبة كبيرة . ..خمنت أنها تحتوى على المبلغ!! أخرج منها أوراق كثيرة قرأتها وقبل أن أوقع قلت:

- قبل أى شىء أحب ان أخبركما أن اسمى الحقيقى هو فردوس الوراق وليس دينا.

...لطالما كرهت اسم فردوس وعندما وصلت لندن كان لا بد أن أتخلى عنه ولو لفترة وعلى العموم هذا هو جواز سفرى وعليه اسمى الحقيقى ....و إقامة قانونية فى بريطانيا!!

بعد تردد ونظرة طويلة إلى الأميرة التى أبدت حيادًا تجاه ما سمعت للتو قال سلمان:

- الحقيقة أن مسألة تغييرك لاسمك هذه تحتاج إلى وقفة، ولكنها على العموم لن تؤثر فى الموضوع شيئًا طالما أن جوازك سليم وموجود...

وقعت على جميع الأوراق وكلها تحمى العنودفى حالة إذا تجرأت ذات يوم وادعيت أن الرواية روايتى!! و بالطبع لم آخذ أى نسخة من الأوراق التى وقعتها ...

فتح سلمان بعد ذلك الحقيبة وأخرج الرزم الملونة الجميلة ...لا يوجد أجمل من العملة الانجليزية بصورة إليزابيثالعتيدة عليها.

قالت العنود: بطل بخل يا سلمان... خذ أوراقك وضعها فى أى كيس وأعط لدينا الحقيبة وبداخلها المال!!

- حاضر سموك، ولكن كيف ستسير بمبلغ كهذا فى الشارع؟

- أعوذ بالله من بخلك يا سلمان؛ أنت بالطبع ستوصلها، هل هذا يحتاج سؤال؟

- معذرة.. عندى اقتراح؛ سآخذ من سعادتك كيس كبير من أكياس "هارودز" وأضع فيه الحقيبة. لا يمكننى أن أدخل بها؛ ستلفت النظر ..

- ما شاء الله، مصرية واعية ...قالت العنود ضاحكة!!

ودعت الأميرة على وعد أن نلتقى بعد يومين لتشريح الرواية ...

أوصلنى سلمان لباب الفندق وقال:

- مدام دينا أو فردوس أو أى اسم رجاءً لا تنقطعى عن المنتدى؛ أنت موهوبة بحق ومن يدرى ربما تأتىالفرصة وتنشرى أعمالك باسمك قريبًا!!

- أكيد سأحضر يا أستاذ سلمان وأشكرك مرة أخرى ..

دخلت غرفتى ومعى كنزى ...خلعت ملابسى وبقيت بالداخلية. فتحت الحقيبة ورحت أرص الرزم وأعدها على السرير ...خمسون ألفًا بالتمام والكمال ..رحت أرقص و"أتنطط" على السرير وأغنى بصوت مسموع كل الأغانى التى تتحدث عن الفرح ...افرح يا قلبى لك نصيب ...يا عنيا يا قلبى جرى أيه، الدنيا احلوت كدة ليه ...الدنية غنوة نغمتها حلوة. تعبت من الغناء والرقص...و فجأة وجدت نفسى أشعر باكتئاب لا معنى ولا لزوم له ... كنت أسخر عندما يستضيفون كاتبًا أو فنانًا ويسألونه عن أحب أعماله إلى قلبه فيقول كلهم أولادى ...فكيف أفضل عمل على عمل؟

والآن أنا اشعر أننى بالفعل قد بعت واحدًا من أولادى.

بهدوء شديد.. صباح اليوم التالى توجهت مبكرة إلى بنك باركليز القريب من المطعم وفتحت حسابًاهناك أودعت فيه المبلغ بالكامل واحتفظت بدولارات نيويورك فى المخبأ أسفل الدولاب ....عدت للمطعم واعتذرت للأستاذ ميشيل عن التأخير. دخلت المطبخ فوجدت ياسر منهمكًا فى تقشير البطاطس ...كاد أن يقفز فرحًا عندما وجدنى أمامه أشرع فى ارتداء المريلة ...

- أستاذ ياسر. غصبًا عن عينك أنت مدعو اليوم على سينما ثم على عشاء فى أفخر مطعم فى لندن ....

انفرجت أساريره ثم قال:

- خير ...أيه المناسبة؟
- أنت الآن تتكلم مع نصف المليونيرة ...دينا الصواف ....
- حقا؟ هل تم الموضوع؟ أنا لا أكاد أصدق ...
- نعم ....حدث....معجزة أليس كذلك؟
- لا طبعًا ليست معجزة؛ أنا قرأت روايتك ولا أصدق أن كاتبة الرواية هى نفسها السيدة المرحة الجميلة البسيطة التى تقشر معى البطاطس!!!
- كلامك هذا أحلى من الخمسين ألف جنيه!!

لم يكن هذا اليوم جميلًا فقط لأن جلستى مع ياسرفى المطعم الفاخر كانت أكثر من رائعة، اقترب منى أكثر واقتربت منه بحذر. اقتربت منه كدينا الصواف الكاتبة الهاوية ....اختلس بعض اللمسات ليدى وكتفى ...كاد أن يعترف لى بحبه ...استمتعت بكل لحظة وكل كلمة

وكان للطعام يومها مذاق آخر ...

لم يكن اليوم رائعًا فقط لأن ياسر قرأ الرواية المبيعة وقال أنها عظيمة،و لكن اكتملت روعة اليوم عندما عدت إلى الفندق وراجعت بريدى الإلكترونى فوجدت رسالة من جامعة برمنجهام ....وافقوا على أن أبدأ محاضراتى فيها خلال شهر، وأرشدونى لكيفية الحصول على تأشيرة دخول لبريطانيا .....هم لا يعرفون أننى هنا بالفعل!!

يا إلهى ..فى يوم واحد المال والعمل والحب؟ هل يمكننى أن اسمى ما بينى وبين ياسر "حب" ؟ فليكن ما يكون. المهم أننى سعيدة مع هذا الشاب. أعلم أنه حب بلا مستقبل، ولكن من يندم على مشاعر جميلةيحسها ويستمتع بها؟

عشرة أعوام عشتها مع محمود، لم أشعر فيها أبدًا بالقشعريرة التى تجتاحنى الآن ....لم تكن حادثة ليلة الدخلة فقط هى التى حرمتنى من السعادة وأحاطت علاقتنا بالشك من أول يوم ...لم يكن دفتر الحسابات الكئيب الذى يظهر أول كل شهر ومن بعده ورقة المطالبات. لم يكن الإنجاب الذى تأخر ....كل هذا كان من الممكن التغاضى عنه، ولكن هذا الفتور؟ هذه النمطية؟كلمة الحب التى لم أسمعها، اللمسة الحانية التى لم يشعر بها جسدى. ....النظرة الحنون التى لم ترها عينى ...لم يفلح محمود أن يجعلنى أشعر بأحاسيس تمنيت طوال حياتى أن أعيشها .....لكن لماذا إذن صبرت عشر سنوات على حياة لم أحبها؟ سؤال محير بالفعل ..هل هو التعود وعدم الرغبة فى المخاطرة؟هل هو هذا الصبر الذى اشتهر به المصريون على مر التاريخ وتباهوا به. فى حين أراه أنا أحيانًا نوعًا من الاستسلام؟ لست أدرى، ولكن مرت الأعوام بسرعة ...لا حب ولا أولاد ...اندمجت فى

بناء حياتى العملية، ماجستير، دكتوراة، أبحاث، روايات،محاضرات ...ونسيت نفسى.

....أقنعتها بأننى أعيش حياة زوجيةعادية على الأقل ...ولكن لم تكن هذه الحقيقة!!

كثيرًا ما تسائلت بينى وبين نفسى:لماذا يصبر محمود على عدم الإنجاب؟هل هو حب ووفاء لى ورغبة منه فى عدم جرح مشاعرى؟ لا أظن ذلك... فمن يقدم لزوجته كل شهر كشف حساب لمصاريفها صعب أن يكون لديه هذه المشاعر النبيلة ...

أحيانًا كانت زميلتى ماجدة تشاركنى هذه التساؤلات ...زوجك تجاوز الأربعين وهو رجل أعمال ناجح ولابد أنه يريد أن يكون له وريث. لماذا إذًا يصبر كل هذا الوقت طالما أنه سليم كما يقول التحليل؟....زرعت ماجدة بذور الشك فى عقلى ...هل تزوج محمود بالفعل و أنجب، لكنه يحتفظ بى كزوجة؛ شفقة منه علىّ؟ أم الاحتمال الأكثر فظاعة وهو أن يكون محمود عقيمًا ولا أمل فى علاجه، ولكنه أتى بتحليل مزورلأقدمه لطبيبى فينفى مسئوليته عن عدم إنجابنا؟ ظل هذا الهاجس الخطير يراودنى لفترات طويلة ويبدو أن حاسة الروائية عندى تجعلنى أحيانًا أتخيل سيناريوهات غريبة قد لا تخطر على بال أحد ..

اختفى محمود فى السعودية عامين بعد زواجنا بأربع سنواتبحجة أن الكفيل يريده بجانبه لإدارة بعض المشروعات ...لم أشعر بهذه الفترة؛ لأننى كنت فى قمة انشغالى برسالة الدكتوراة ....هل تكون هذه الفترة هى التى تزوج فيها محمود؟ لقد زرته هناك مرة واحدة و نزل هو إجازات قصيرة عدة مرات. لم أشعر بأى تغيير... نفس الفتور ونفس النمطية ونفس الأداء!!

هكذا مرت السنون... شك وريبة ونظريات واحتمالات ...

ولكن لو أنه تزوج وأنجب فلمَ يحتفظ بى؟ لم لا يعطينى فرصتى أنا أيضًا؟ لقد قال لى الطبيب أمامه أنه ليس هناك ما يمنعنى من الإنجاب ....لماذا رفض فكرة أطفال الأنابيب أو وسائل التلقيح المساعد وتحجج باحتمالية أن تكون حرامًا – لست أدرى كيف – أو غير مضمونة؟ هذا للأسف قد يؤكد نظرية أنه هو الغير قادر على الإنجاب ..فإذا كان الأمر كذلك فجريمته إذن بشعة ....كيف لا يعطينى حرية الاختيار؟ أبقى معه أو يسرحنى بإحسان؟ لماذا تركنى هكذا فريسة لنظرات الشفقة من كل من حولى ....لماذا جعلنى مصدرًا للقلق لأختى إحسان حتى وصل الأمر إلى أنها أصبحت تخفى حملها عنى خوفًا من أن أحسدها!! أصبحت لا تكاد ترانى إلا وتنشد وصلتها الخالدة عن الأولاد ومتاعبهم وبلاويهم و كيف أن أحمد يسعل دائمًا سعال المصابين بالسل و جميلة لا تأكل على الإطلاق و ياسمين عندها طفح جلدى معدى!! وطبعًا كل هذا من نسج خيالها لتبعد عن أولادها العين ...عينى أنا؛ لأننى عاقر!!

إحسان التى أنقذتها من الجهل ومن ذل الشهادة المتوسطة فى بلد مثل مصر. إحسان التى جهزتها من الألف إلى الياء ....إحسان التى وقفت فى وجه أبى مرتين من أجلها؛ مرة لتكمل تعليمها فى الثانوى العام و مرة عندما أصر على أن يفسخ خطوبتها من على – زوجها الآن – لأنه تجرأ وقال أنه لا يستطيع أن يشترى الثلاجة فى وقتها ...قمت أنا بشرائها لأنقذ الموقف بعد أن أسمعت والدى مالم أكن أريد أبدًا أن يسمعه منى، ولكنها كانت الظروف وقتها ...

إحسان الآن تخفى حملها عنى وتشعل البخور فى شقتها عندما أقوم بزيارتها!!

يا إلهى ....لمسة حانية لطيفة كنسمة رقيقة فى نهاية نهار صيفى قاسى ربما جاءت بالخطأ من يد ياسر جعلتنى أسترجع كل هذه المرارات!!

حرصت على موعدى مع الأميرة العنود ...

- أهلا يا دينا...سأناديك دينا... من حق كل إنسان أن يختار الاسم الذى يعجبه، أنا أيضًا أرجو أن تنادينى "نودى" ما العنود هذا؟

ضحكت وقلت لها: أهلا بالأميرة نودى ...

- بجد يا دينا ...من أنت؟ هذا سؤال صريح ومباشر. يبدو أن ورائك حكاية ما، والله أنا لست متطفلة، ولكننى أظن أننا سنكون أصدقاء فلم لا نتصارح؟ أنا بدأت بذلك وحكيت لك القصة التى ربما لا يعرفها أحد ..

- حضرتك.. الشىء الوحيد الذى أخفيه و يستحق أن أذكره الآن هو أننى متخصصة فى هذا المجال ..أحمل درجة الدكتوراة فى الأدب الانجليزى. شىء آخر يمكن أن أضيفه و هذا لك باعتبار أنك قلت أننا سنكون أصدقاء ...أنا متزوجة، ولكنى على خلاف شديد مع زوجى و نحن على وشك الانفصال الرسمى وأنا أعتبر هذه الفترة فرصة للتفكير السليم لاتخاذ القرار النهائى ...

- وما علاقة هذا بأن تعملى فى مطبخ مطعم؟

- بعد أن حصلت على المبلغ من حضرتك لن أضطر للعمل فى مطبخ مطعم!!

- أنا سعيدة لأنك صارحتينى بالحقيقة، ولكنك صعبت على المهمة؛ دكتوراة فى الأدب الإنجليزى؟ أخشى أن يبدو هذا فى الرواية وقد يشكك فيها البعض!!

- اطمئنى من هذه الناحية ولربما لاحظت أنت بنفسك أننى عندما أكتب أنسى تمامًا العلم والدكتوراة. أكتب كما كنت أكتب وأنا فى المدرسة أوالجامعة ...حرة وسلسة وسريعة وبسيطة ....أنا أكتب لكل الناس.... البسطاء والمثقفين والأكثر ثقافة والنخبة. أنا لا أكتب لأتعالى على الناس بما تعلمته... أنا أكتب لأمتعهم وأفيدهم ...

- هذا واضح جدًا ، لطالما انزعجت من هؤلاء الذين يتقعرون ويتفلسفون ويخرجون علينا بأعمال سخيفة مكتوبة بأسلوب أسخف يجعلك تكرهين القراءة من الأساس!!

- من أجل هؤلاء بالذات أنا أكتب؛ احاول أن أثبت أن الجمال فى البساطة وأن الفكرة البسيطة المبتكرة أسرع فى الوصول إلى الناس بكثير من فكرة معقدة ونمطية ...

شرحت للأميرة الجو النفسى الذى جعلنى أفكر فى كتابة هذه الرواية ومن أين نبتت الفكرة و كيف تسلسلت الخواطر. كنت سعيدة وأنا أشرح... لطالما تمنيت أن تسألنى مذيعة أومذيع فأجيب وأسهب فى الإجابة ..لم يحدث هذا فلم لا أنتهز هذه الفرصة وأحكى للأميرة المبهورة ما أردت أن أحكيه لأحد من زمن؟!

شرحت للأميرة أيضًا كل نقاط الضعف المفترضة فى الرواية؛ لأن القراء والنقاد سيسألونها عنها وعلمتها كيف ترد وتقول أن نقاط الضعف هذه هى نقاط قوة وواقعية الرواية!!

أخبرت الأميرة أن وسيلة الاتصال المثلى بينى وبينها هى البريد الإلكترونى لأنه ثابت.

وأننى سأكون حريصةعلى أن أسأل عنها من حين لآخر وأن عليها هى أيضًا أن تفعل إذا احتاجت أى شىء ...

خرجت من عندها وأنا يسيطر على إحساس أننى أحبها ....المفروض ألا أحبها لأنها سرقت مجهودى وإبداعى. ستحقق روايتى النجاح و ستجنى هى كل الثمار ...ستنطق بلسانى وتظهر فى المجتمعات الأدبية وتتكلم بمنطقى ....المفروض أن أكرهها، ولكنى لم أكرهها؛ هى لم تعذبنى لأوافق على البيع ولم تستولِ علي الرواية من وراء ظهرى – وكان يمكنها أن تفعل – ومع ذلك فمن المفروض أن أكرهها ....ولكنى لم أكرهها ... لست أدرى ما مساحة الكراهية فى قلبى ....يبدو أن الله قد أعطانى مساحة ضئيلة جدًا منها. خذلنى أبى ولم أكرهه، سرقت سعاد مكانة ومكان أمى ولم أكرهها تخوفت، منى إحسان ولم أكرهها،تجاهلنى التوأم ولم أكرههما....أنكر زملائى فى الجامعة موهبتى وقالوا تخاريفوأحلام يقظة ورغبات مكبوتة ولم أكرههم. والآن تسرقنى الأميرة ولا أكرهها!

هل هذه ميزة أم عيب؟ هل هى صفة حميدة. كافأنى عليها الله وأرسل إلى من يسرق موبايلى لأنجو من الموت. ووضع فى طريقى سلمان ومرزوق والعنود لأحصل على الثروة وجعلنى أعمل فى مطبخ لألتقى بياسر النقى البرىء المشحون دفئًا وحنانًا؟

ولكن لماذا أنا بالذات من ضمنأكثر من مائتى راكب؟ لماذا لم ينقذ الله العسكريين الذين كانوا على متن الطائرة واللذين أتموا تدريبهم المميز وحان وقت رجوعهم لتستفيد منهم مصر؟ لماذا لم يرسل الله لهم منيسرق موبايلاتهم لينجوَا من الموت؟ يا الله ...لا أفهم حكمتك؟

هل أنا اجتهدت طوال حياتى فكافأتنى بحياة جديدة قد تكون أجمل، أم أنك أنقذتنى من الموت فكفرت بنعمتك وهجرت الحياة المقدرة لى وتركت أهلى وكينونتى؟ لماذا لا يهدأ هذا التفكير؟ لماذا أصر على أن يعمل عقلى أربعة وعشرين ساعة بدون توقف حتى أثناء النوم لم لا أخرس وأستمتع بما هو كائن؟

قال لى ياسر فجاة فى المطبخ :

- طبعًا بعد الأحداث الأخيرة ستتركن العمل هنا؟

احترت فى الإجابة ...فأنا بالفعل نويت أن أترك المكان، ولكن ليس بسبب أننى أصبحت ثرية،ولكن لأننى لابد أن أسافر إلى برمنجهام خلال شهر لأبدأ محاضراتى هناك ..ولكن كيف أصرح له بهذا وهو لا يعلم أننى أستاذة جامعية؟....لست بصدد أن افتح الباب للتساؤلات الآن ....ولكنى أعتقد أيضًا أنه حتى لو لم يكن رد الجامعة قد وصلنى فلابد أن أترك المكان. لا بد أن أبتعد عن ياسر فما جدوىهذه العلاقة. أنا أكبر منه بعشر سنوات ومتزوجة وهناك فارق ثقافى كبير بيننا. ربماكان الفارق الثقافى نفسه الذى بينى وبين محمود – وهذه كانت مفاجأة كبيرة لى – لم أتخيلأن محمود بهيئته وهيبته ووقاره يمكن أن يكون بهذه السطحية...صحيح المظاهر يمكن أن تخدع....

...و لكن محمود قصة وانتهت فهل أعيدها الآن مع عيوب أوضح؟لابد أن أبتعد...

سأدوس على قلبى وأضحى بمشاعرى الجميلة ...فى الثمانيناتوبعد حكاية حاتمكنت

أغنى مع شادية كلمات أغنية تعبر تمامًا عن مشاعرى فى ذلك الوقت:
يا قلبى سيبك من الحب سيبك
لا تقول حبيبى ولا حبيبك
يا قلبى سيبك يا قلبى...
يا قلبى ياللى اشتريت عذابك
وبعت أجمل أيام شبابك
لو عشت خالى وقفلت بابك
ماكانش سهم الزمان يصيبك
يا قلبى سيبك ..
والآن أرددها مرة أخرى وأكاد أبكى مثلما بكيت وقتها...

- الحقيقة يا ياسر أننى أنوى أن أترك المكان، ولكن ليس لأننى لم أعد بحاجة للمال ..

...الحقيقة أننى وجدت عملًا فى تخصصى، ولكن فى برمنجهام!!

- سترحلين ؟
- أعتقد ذلك ..
قال ياسر ودمعته تكاد تسيل على خده:

- وأنا؟ ماذا سأفعل هل تتصورين مدى الألم الذى سيصيبنى لو حضرت إلى المطعم ذات

يوم ولم أجدك؟

- أنا فقط أعلم مدى الألم الذى سيصيبنى أنا إذا استيقظت ذات يوم وأنا أعلم أننى لن أراك ..
- لماذا إذن؟ لماذا تؤذين نفسك وتؤذينى ....
- مضطرة ....أسباب كثيرة ليس أهمها احتياجى أن أعمل فى تخصصى ..
- ما أهم سبب إذن؟
-علاقتنا ...صعب استمرارها ..فارق السن ... لا تنظر إلىّ الآن ...انظر بعد عشر سنوات؛

عندما تكون أنت فى أوج شبابك وأكون أنا فى سن اليأس!!

طال صمت ياسر قبل أن يقول بصوت خافت لا أدرى هل بسبب حزنه أم بسبب تردده:

- أنا يشرفنى – ومهما كانت الظروف – أن أرتبط بك بعد أن تنتهى من أمر زوجك

،ولكن إذا كان هذا لا يناسبك فلم تحرمينى من رؤيتك؟ لم لا تبقين ...ولن أتكلم فى أى شىء يلزمك.. تكفينى رؤيتك ...ما رأيك؟

- أنت ذكى جدًا يا ياسر.. هذا هو بيت القصيد...لن يكون لعلاقتنا مسمى أو إطار. أنا أسعد برؤيتك وأنت كذلك فلنستمر فى ذلك، ولكن لماذا الإصرار على المطعم، لم لا تأتى إلى برمنجهام...اسمع.. أنا أعرض عليك فكرة جديدة حاول أن تستوعبها. أخرج المال الذى ادخرته من تحت البلاطة وأكمل أنا عليه ثم تتقدم للدراسات العليا فى الجامعة ...هذا سيفتح لك مجالات عديدة وقد تجد عملًا يناسب مؤهلك ....فكرة جيدة أليس كذلك؟

- وماذا تسمين هذه العلاقة؟ تنفقين على لأكمل تعليمى؟ هل رزقك الله بهذا المال لتنفقيه على من لا يصلح- من وجهة نظرك- أن يكون زوجك؟ على من لا يستطيع أن يمنحك السعادة التى تستحقينها بكل تأكيد ...

- سعادتى أن أراك سعيدًا وراضيًا وبجانبى ..

- اسمعى الحلول الوسط تنفع دائمًا فى وقت الحيرة ...أنا ممكن أن آتى معك وأبحث عن عمل فى برمنجهام ...شريطة أن تذكرى لى سببًا واحدًا يجعلك تصرين على برمنجهام ...هل الأميرة مثلًا وجدت لك هذا العمل هناك؟

كان لابد من إجابة لأغلق هذا الباب إلى الأبد..

-اسمع يا ياسر حان وقت المصارحة ...أنا حاصلة على الدكتوراة فى الأدب الإنجليزى و أدرسه فى الجامعة بمصر وقد جاءت لى فرصة طالما تمنيتها وتمناها غيرى للتدريس فى جامعة برمنجهام ....هذه هى الحقيقة ...

لم أفهم نظرة ياسر وقتها ...هل هى نظرة يأس بعد أن عرف أن فتاة المطبخ المرحة أستاذة جامعية ....صعب أن يصل إليها الآن؟ هل هى نظرة عدم تصديق؟ لقد اعترف لى بالأمس أنه لم يصدق حكاية الأميرة والرواية والإسترلينى إلا بعد أن رأى إيصال إيداع البنك بعينى رأسه ...فهل هوالآن لا يصدقنى ويظن أننى أقول هذا لأبعده نهائيًا عن طريقى.

- إنها الحقيقة يا ياسر ...

- ولماذا تقبلى أن تعملى فى مطبخ وأنت أستاذة جامعية؟

قلت وكأننى أنتظر السؤال من زمن ومتأهبة للإجابة عليه:

- مبدئيًا قد يكون السبب اقتصادى بحت؛ بمعنى أننى أردت ألا أبدد ما ادخرته من نقود فى انتظار موافقة الجامعة ..أما ثانيًا: فيجب أن نسأل فيه طبيب نفسانى ....هل هو الحنين للماضى؟ ما يسمونه فى علم التفس: النوستالجيا ....أريد أن أستعيد فترة من شبابى عشتها أتنقل من عمل إلى آخر وكلها كانت أعمال بسيطة، ولكن فى النهاية كانت تتيح لى استقلالًا ماديًا و حرية فى اتخاذ القرار؟ هل هو نوع من دفاعات النفس البشرية عن نفسها عندما تتعرض لضغط نفسى. ومما لا شك فيه أننى قد تعرضت فى الفترة الماضية إلى ضغط عصبى ليس من السهل استيعابه؟ ياسر أنا والكثيرون نحمل بداخلنا أسرارًا و خبايا قد تفسر تصرفاتنا ....ولكن ليس كل ما يعرف يقال ...

- دينا ...سافرى إلى برمنجهام واستكشفى الأحوال هناك فإذا وجدت إمكانية العثور على عمل مناسب لى هناك فسأحضر على الفور، ولا تنسى أنك من علمتينى ألا أترك عملًا إلا

إذا عثرت على آخر!!

- نعم ولكن لا تنسى أن معنا الان ما يكفينا لنعيش حتى تجد عملًا محترمًا ...

- تكررين ثانيًا ....المال ....لا....وبهذه المناسبة ، سنؤجل مسألة الدراسات العليا حتى تتضح الأمور أكثر من ذلك.

بلا شك هو رجل محترم.. أكثر احترامًا ربما من رجال كثيرين التقيت بهم!!

- أحب أن أخبرك أن برمنجهام مدينة كبيرة وبها جاليات أجنبية كثيرة وأنا متأكدة أنك ستحصل على عمل مناسب هناك وأنا لن أثقل عليك فى مسألة الدراسات العليا، ولكن تأكد أنها لم تكن طعزومة مراكبية ". أنا كنت أعنى ما أقول ...أنا أعرف جيدًا معنى الصداقة الحقيقية حتى وإن كانت بين رجل وامرأة ....كان من الممكن أن تعتبره دين عليك يأ اخى!!

- صدقينى يا دينا.. أنت تعنين الكثير بالنسبة لى، ولكن دعينى أفكر من جديد فى الأمور كلها على ضوء التغيرات الجديدة ...كنت بالأمس زميلتى فى المطبخ والأن أنت الدكتورة دينا صاحبة الرصيد الكبير فى البنك ....مفاجأت كبيرة فى وقت قصير!!

عدت إلى الفندق ذلك اليوم وأنا أحس بمعاناة ياسر!!

بدأت فى الإعداد للسفر لبرمنجهام ...قمت بعدة اتصالات مع إدارة الجامعة لمعرفة جدولى والمنهج الذى سألتزم به قبل أن أصل إلى هناك. هكذا تعودت الاستعداد قبل أن أخطو أى خطوة.عرفت أن جدولى ليس ثقيلًا، ربما ثلاث محاضرات فى الأسبوع بخلاف الندوات

والامتحانات النصف شهرية وغير ذلك من المهام التدريسية ...عرفت أيضًا أن مدة العقد ثلاثة شهور قابلة للتمديد إذا دعت الحاجة ...

أخبرت مسز فلورانس. أحسست أنها صادقة فى قولها بأنها ستفتقدنى ....وفى تصرف لا أعرف مغزاه قررت أن أحتفظ بغرفتى فى بادنجتون فى فندق مسز فلورانس ....نعم قلت لها أننى سادفع الإيجار مقدمًا لأحتفظ بها؛لأننى سأحضر إلى لندن فى عطلات نهاية الأسبوع،فلا داعى لأن أبحث فى كل مرة عن غرفة فى فندق ...حاولت أن تثنينى عن عزمى قائلة أنها ستتكفل بإيجاد غرفة لى فى كل مرة أحضر فيها، ولكنى أكدت على موقفى ...هل كان هذا التصرف رغبة منى فى الإبقاء على صلة ما بياسر؟

ودعت الأستاذ ميشيل وأنا أستلم آخر مستحقاتى من المطعم ، وأيضًا فى تصرف غير مفهوم قلت له:

- هل يمكننى – إذا فشلت فى برمنجهام – أن أعود للمطعم مرة أخرى؟

قال بدون تفكير: على الرحب والسعة أنت وياسر"دويتو "مميز ومن أكفأ من عملوا معى.

ذهبت للكوافير لأن شعرى كان قد طال ولم تعد تسريحة ميراى ماثيو كما كانت عندما غادرت نيويورك!!

أيضًا اشتريت عدسات ملونة جديدة بدرجة لون أفتح من السابقة.

ياااه..... مرة أخرى سأعود لارتداء التاييرات والملابس الرسمية ....اشتريت ثلاثة أطقم بمستلزماتها ....هذا هو زى التدريس فى بريطانيا. ولكن فى هذه المرة وأنا أشترى الزى

التقليدي. كنت أحس بطعم جديد ....لم يكن التسوق التقليدى لأداء مهمة محددة ...كنت أشترى وأنا أعرف أننى مقبلة على حياة جديدة ....ستكون هذه هى أول مرة أدرس فيها بعد وفاتى!!

ليلة السفر أصر ياسر على أن يدعونى إلى العشاء ليودعنى. فكر فى أن يكون ذلك فى مطعم فاخر، ولكنى أقنعته بأنى سأكون أسعد لو أن العشاء فى غرفته. تحجج بأنها "مش قد المقام" كنت مُصرة... قلت له: كل ما عليك هو أن تنظفها جيدًا. لا أطيق غرف العزاب بما فيها من فردات جوارب متناثرة و بقايا مأكولات وأعقاب سجائر ...لطالما رأيت ذلك عنما كنت أزور التوأم فى الغرفة التى كانا يستأجرانها أثناء دراستهما فى الجامعة بطنطا!

ترى ...ماذا فهم ياسر من إصرارى على العشاء فى غرفته؟

فى مساء ذلك اليوم... ارتديت فستانًا وليس الجينز المعتاد. ووضعت ماكياجًا خفيفًا أشبه بالماكياج الذى وضعته يوم لقائى بالعنود...

دخلت غرفة ياسر الشديدة التواضع. مجرد سرير صغير وكرسيين ودولاب مع ما يشبه الحمام ...لاحظت أنه بذل مجهودًا خرافيًا لتبدو على الأقل صالحة لاستقبال آدميين مدة ثلاث أو أربع ساعات!! اتفقنا على أن نأتى بطعام جاهز وليكن صينيًا فقد مللنامن المشويات فى مطعم الروشة ...

تكلمنا فى كل شىء وبحت له ببعض أسرارى واتفقنا على أن أقوم بالبحث له عن عمل مناسب فى برمنجهام بمجرد وصولى، وأننى بصرف النظر عن هذا سأزور لندنفى "الويك إند" كلما سنحت الفرصة والدليل على ذلك أننى احتفظت بغرفتى فى بادينجتون.

لاحظت اضطرابه واحمرار وجهه. خمنت بالطبع أنه فى حيرة يتسائل هل وجودى معه فى غرفة مترين فى متر و باب مغلق هو دعوة صريحة منى ليقيم علاقة معى ...أم أننى قدأسمح له فقط بتبادل القبلات؟ كان لابد أن ننهى هذا الموقف..

قلت له: أعتقد أنه قد حان الوقت لاستلام الطعام من المحل، أليس كذلك؟

و كأنه كان ينتظر هذه الجملة للخروج من المأزق، قام من كرسيه وقال: فعلا، يا دوبك..

..فتح باب الغرفة وقال وهو يخرج: ابقِ أنت هنا.. لن أتأخر ..

قمت من الكرسى غير المريح واستلقيت على السرير الذى يكاد يكون بغير مرتبة من فرط نحافتها!!بالرغم من ذلك أحسست براحة شديدة بعد يوم ملىء بالعمل، تمامًا مثل يوم غفوتى فى المطارونجاتمن الموت ..

أغمضت عينى قليلًا وأنا يراودنى إحساس بالأمان وأنا مستلقية على فراش ياسر. رأيت فى غفوتى ياسر يفسح لنفسه مكانًا بجانبى فى السرير الضيق.. يمسكنى بقوة حانية من شعرى القصير.. يقترب من فمى وقبل أن يقبلنى ينظر فى عينى ويدغدغ أنفى وخدى بأسنانه ثم نذوب سويًا فى قبلة طويلة وعميقة.. يرفع الستار عن جسدى الأعلى بتأنى وروية ومتعة حقيقية تبدو فى عينيه.. يستكشف بأنامله هذا الكيان المحتقن المتلهف فى أعلى جسدى.. يداعب قمته فتستجيب له قائمة ومتأهبة.. يتفقد بقية جسدى نزولًا.. يعلق على تماسك جسدى كفتاة فى العشرين فأجيبه هامسة بأن هذا لأننى لا أكف عن العمل والحركة كما أننى لم أحمل أو ألد...يرفع الستار عن بقية جسدى فأرتجف وأسحب الغطاء علىّ

فيتسلل هو من تحته ويشعل النيران اللذيذة،ثم يسمح لى بان أكتشفه أنا أيضًا تلميحًا لا تصريحًا.. يستمتع بآهاتى ولا يخجل منها ولا يأخذها علىّ.. يطفىء نيرانى التى أشعلها بقوة ناعمة.. يتخلخل جسدى من تحته بعد حرمان أكثر من سبعة أشهر من علاقة تؤدى الغرض فى حده الأدنى، وحرمان العمر كله من علاقة تخيلتها وتمنيتها ولم أحصل عليها أبدًا!!

أفقت منغفوتى وأنا لا أدرى، هل كان هذا حلمًا أم حقيقة ....هذه هى أحلام يقظتى رافقتنى طوال عمرى. لم أتخلَ عنها أبدًا.. أعيش فيها وأندمج. هى التى جعلتنى أتخطى الأيام الصعبة وأحافظ على سلامة بنيانى النفسى، لولاها ما استطعت أن أحيا بعد صدماتى المتكررة ...

أفقت إذن من غفوتى على صوت مفتاح ياسر فى الباب. لم يكن هذا الحلم فى هذه الغفوة مثل أى حلم...كان قريبًا جدًا من الحقيقة حتى أننى أكاد أقول أننى قد شعرت بارتياح جسدى الملتهب بعد أن أطفأ ياسر نيرانه فى نهاية الحلم!

- رائحة الطعام لا تقاوم، قومى بسرعة، هل أعجبك هذا السرير الوضيع؟

- ليس المهم أن يكون سريرك وضيعًا أو فاخرًا، المهم أن تستطيع أن تنام فيه بعمق!!

أكلنا بشهية واستمتاع كما لم نأكل من قبل....أحسسنا أنه ربما تكون هذه المرة هى آخر مرة ناكل فيها سويًا جعلنا نحاول أن نقتنص اللحظة ونستمتع بكل المتاح!!

فتح ياسر باب الحمام لأغسل يدى وأخرج لى فوطة نظيفة ..الغرفة ضيقة ولابد أن يتلامس جسدانا إذا ما تحركنا فيها ....

لم أكن من السذاجة بحيث ألاحظ أن ياسر يتألم من فرط الإثارة ....أسعدنى هذا

الإحساس – كأنثى – بالطبع، ولكنى أحسست أيضًا بالخطر! إذا قام هو بأى مبادرة فربما أستجيب له ....قد لا أتمكن من المقاومة، أنا بشر ولكل بشر طاقة ونقطة انكسار!!

أخذت حقيبتى وتوجهت ناحية الباب ...أعرف أن ياسر سيوصلنى لمحطة مترو الأنفاق كما اتفقنا....بعد أن تأكدت أن الباب مفتوح تمامًا وأصبحنا على وشك الخروج منه. أمسكت برأسه وخفضتها لأتمكن من طبع قبلة على جبينه. خرجت بسرعة وهو ورائى ...

سرنا بدون أن نتكلم حتى محطة المترو ....لوحت له وأنا أصعد للقطار وقلت له: أراك قريبًا بإذن الله.

بكيت وأنا فى القطار متوجهة إلى برمنجهام، أشفقت على ياسر. مازال الطريق أمامه طويلًا وشاقًا ...كدت أن أمسك بالموبايل واتصل به وأبوح له بكل المشاعر الجميلة البريئة والغير بريئة!! أطلب منه، بل أتوسل إليه أن يحضر إلى برمنجهام ويدعه من المطبخ والمطعم وأنا كفيلة بأن أعثر له على عمل ....تراجعت وتماسكت وأدركت أن على أن أتذكر أننى لم أمت بعد وأننى ما زلت فردوس الوراق على الأقل فى نظر نفسى.

وعلى ذمة رجل هو محمود السيسى!!!

و جدت من ينتظرنى على محطة القطار.موظف محترم فى الجامعة ..قادنى إلى مكتب العميد بعد أن عرجنا على الاستوديو الذى أعدوه لإقامتى لنضع حقيبتى ..قابلت دكتور برادلى العميد..رجل لطيف بتحفظ،ذكرنى برئيس وزراء بريطانى سابق هو هارولد ويلسون. قال

لى أننى أبدو أصغر مما توقع. فسألته إن كان هذا عيبًا أم ميزة للعمل؟ أجاب بأنه يمكننى أن أدخل قلب الطلبة بسهولة لأننى شابة، ولكن ليس شرطًا أن يقتنعوا بآرائى فى أى مناقشة خارجية لأنهم سيروننى صغيرة نسبيًا ...

عرفنى بأعضاء القسم ودارت بيننا مناقشات سريعة خرجت منها بانطباع أن مهمتى هنا لن تكون صعبة كما كنت أتخيل ...

دخلت الاستوديو ...نظيف بسيط وأنيق ومجهز بكل ما يمكن أن أحتاج إليه. تذكرت غرفة ياسر المتواضعة وتمنيت أن يكون بجانبى الآن ..

تناولت الوجبة الخفيفة التى أمدونى بها ثم – كالعادة – شرعت أرص ملابسى فى الدولاب و أنا أفكر فى الزى الذى سأرتديه فى أول محاضرة لى بعد وفاتى!!

على عكس ما صور لى خيالى.. استقبلنى الطلبة فى اليوم التالى بفتور نسبى وبتساؤل يبدو واضحًا فى أعينهم ....تخيلت فى أحلام يقظتى شىءمن الانبهار أراه فى وجوههم لأنهم كانوا يتخيلون مثلًا أن أستاذة الأدب العربى لابد أن تكون سيدة خمسينية كئيبة.على الأقل تغطى رأسها بإيشارب أو شىء من هذا القبيل!

كان عددهم سبعة وعشرون؛ تسعة عشر طالبة والباقى من الذكور ...كان الطلبة فى أمريكا مرحون إلى أقصى درجة، وكنت أخشى دائمًا أن يكسروا الحاجز المفترض بين الطالب والأستاذ. لذا بذلت مجهودًا مضاعفًا للسيطرة عليهم ....هنا فى برمنجهام الطلبة أكثر تحفظًا ،ولكن بدون ثقل دم. تعرفت على أسمائهم وعرفت من بعضها أن هنالك نسبة من المسلمين

و نسبة من الشرقيين عمومًا ...أما البريطانيون؛ فقد كانت نسبة كبيرة منهم من الذين شاءت ظروفهم أن يختلطوا فى مرحلة ما من حياتهم ببيئة عربية. مثل الطالب جون سكوت الذى كان والده دبلوماسيًا فى الكويت وقت أن كان هو فى المرحلة الابتدائية. والطالب طونى جرين الذى عمل والده فى القاهرة كمدير لإحدى المدارس الإنجليزية العريقة وقد أبدى طونى اهتماما خاصًا بى عندما علم أننى مصرية.

مر وقت المحاضرة الأولى مابين التعارف المبدئى والتعرف على المنهج وخريطة الطريق لتدريسه والانتهاء منه فى الوقت المناسب.

من بين الطالبات لفتت نظرى "فاتيما" المغربية الأصل. قلت لها: كنت أظن أن من البديهى أن تتجهى إلى فرنسا وليس بريطانيا للدراسة فأجابت بأن والدها مهاجر قديم هنا وأنه صاحب محل سوبر ماركت شهير فى وسط المدينة وأنها ولدت هنا، ولكنها تزور بلادها بانتظام. فوجئت بها تنطق بلهجة مصرية مائة بالمائة. أرجعتها هى إلى ولعها بالغناء والسينما والدراما المصرية ...قلت لها فى آخر اللقاء: أعتقد أننا سنكون أصدقاء!

اتصل بى ياسر فى مساء نفس اليوم ليطمئن علىّ أخبرته أننى سعيدة وأننى لا ينقصنى إلا أن يكون بجانبى...أتانى صوته من خلال التليفون خافتًا حزينًا يحاول أن يدارى غصة فى نفسه فأفسد على اليوم الذى بدأ جيدًا!! اتصلت أنا به قبل أن أخلد إلى الفراش وأخبرته أن لقائنا سيكون أقرب مما يتصور ...ندمت على المكالمة الثانية، كان يجب أن أكون أقوى من ذلك...

خلال أيام قليلة استطعت أن أستحوذ على انتباه طلبتى ...خرجت عن المنهج كثيرًا وكان

هذا يبهجهم! تحدثت عن نفسى كثيرًا – بناءً على طلبهم – وهذا أيضًا أبهجهم ...فوجئت

بأسئلتهم وأحيانًا لم أكن أجد إجابة شافية ...

مثلًا سألنى أحدهم عن ازدواجية الكاتب العربى عندما يتكلم عن تجربة فى رواية ما، هو

فى أعماقه ينكرها، وربما يجرمها أيضًا – ولكن فى الرواية نتصور من السياق

غير ذلك. استطعت أن أفهم ما يقصد بصعوبة، و بررت سطحية السؤال بصغر سنه،ولكنى أجبت وقلت:

- الرواية سرد لحدث ما، يمكنك أن تسرد من وجهة نظرك أومن وجهة نظر بطلها أو من

وجهة نظر راوى. وليس من الضرورى أن أؤمن بشىء ما لأكتب عنه ....أنا أفهم ما تقصد

أنت تريد أن تقول أن بعض الروائيين العرب يكتبون عن أبطال يقومون بأعمال هم ينكرونها،

ومع ذلك ففى روايتهم يبرزونها على أنها أعمال عادية ولذا فأنت ترى أن هذا تناقض، لا

ليس هذا تناقض... هو صراع وهذا لب أى رواية ...

وهكذا كانت الأسئلة صعبة والأجابات أصعب ..

كنت قد قررت أن أعود إلى لندن فى "الويك أند" وبالفعل أعددت العدة لذلك وقررت أن أجعلها مفاجأة لياسر ....ولكن يوم الخميس فوجئت بفاتيما ومعها ليزلى البريطانية من أم لبنانية

تطرقا باب مكتبى وتدعوانى إلى حفل ترحيب سيقيمه الفصل خصيصًا بمناسبة وصولى

...حاولت أن أعتذر ولكن إلحاحهما كان أكبرمن اعتذارى ...وافقت وأجلت سفرى للندن

....حمدت الله على هذا ....كان ينبغى علىّ بالفعل أن أؤجل لقائى بياسر ..

كان حفلًا رائعًا ...استطعت أن أفهم أن الطلبة والطالبات تذرعوا بالترحيب بى ليقيموا حفلًا

والسلام ....عرفونى بأنفسهم من جديد، ولكن بطريقة مختلفة طريقة "خارج الفصل" ..

كان الحفل فى حديقة فيللا جون سكوت ...رقصوا وشربوا البيرة، وكانت المفاجاة حين أحضرت فاتيما ألبوم "نور العين" لعمرو دياب وراحت تتمايل على أنغامه هى وليزلى.

لست أدرى ..هل أى استاذ جامعى يحضر إلى هنا يقيمون له حفل استقبال ويرقصون ويشربون أم أنهم أحسوا بحكم سنى الصغيرة نسبيًا – أنه من الطبيعى أن أشاركهم اهتماماتهم ...أم هى استهانةبالدكتورة صغيرة السن القادمة من الشرق المتخلف؟

هل أنا معقدة أكثر من اللازم؟

دخلنا فى الأسبوع الثانى ...أحكمت السيطرة تمامًا على المحاضرة ...لا مقاطعة.. لا أسئلة إلا بعد انتهاء الدرس.. لا خروج عن الموضوع إلا بما يفيد الموضوع....تقبلوا منى ذلك!

طرأت فى ذهنى فكرة عندما كنت أحتسى النسكافيه فى غرفة الاستراحة ووجدت فاتيما أمامى.

- فاتيما.. أريد منك خدمة إن استطعت طبعًا ...

- يسرنى ذلك تفضلى ..

- تقولين أن لوالدك سوبرماركت كبير فى وسط البلد؟
- نعم
- لى قريب يهمنى أمره جدًا ....يريد أن يلتحق بالدراسات العليا بكلية العلوم ومن أجل ذلك يعمل ليل نهار من أجل توفير نفقات الدراسة. هل يمكن أن نجد له عملًا مناسبًا عند والدك؟

- لا أعرف، ولكن جائز لم لا؟ ممكن جدًا أن يكون والدى بحاجة لعمالة ...حسابات، مشتروات، سأسأل وأجيبك على الفور ...

صباح اليوم التالى لم يكن لدى محاضرات ....منذ وقت طويل لم أفتح بريدى الإلكترونى ..من سيراسل إنسانة ماتت؟ ربما بعض الإعلانات التجارية وقلة من الأصدقاء والمعارف الذين لم يصلهم نبأ وفاتى بعد....اليوم فتحت البريد لأفرزه وأنظمه وأحذف الزائد منه ..كانت المفاجأة الكبرى ....رسالة من باربرا!! هل علمت أننى لازلت على قيد الحياة؟فتحت الرسالة وقلبى يكاد يخرج من بين ضلوعى من فرط الاضطراب ..قرأت:

دكتورة فردوس ..

أفتقدك بشدة ...أعرف أنك لن تقرأى هذه الرسالة ...أعرف أنك قد انتقلت إلى عالم آخر، قد يكون أفضل من عالمنا ....ولكنى لا أستطيع أن أمنع نفسى من أن أكتب إليك ...سأجن إذا لم أفعل ...لا تتصورى مدى الألم الذى عانيتهعندما استيقظت ذلك الصباح الكئيب وعلمت بالخبر المشئوم ....هرعت إلى التلبفون على أمل الواحد بالمائة ألا تكونى قد ركبت الطائرة ...كان تليفونك مغلق، اتصلت برقم منزلك بالقاهرة فى المساء ..رد علىّ زوجك وتأكدت من الكارثة...لا نفقد كل يوم صديقة فما بالك وأنت أعز وأغلى صديقة؟ طوال عامين كنت أحس بالأمان لأنك بجانبى. لم أصرح لأحد بمكنون نفسى إلا أنت واليوم تتركينى فى هذا العالم الموحش وحدى؟ ما أقسى هذه الحياة ....أودعك ...على أمل أن ألقاك فى عالمك الأفضل ... باربرا

بكيت بشدة وسالت دموعى على اللاب توب ...باربرا الوفية تتألم وتبعث برسالة تعرف أنها

لن تقرأ ....فقط لتزيح عن صدرها عبء الحزن الثقيل ...هذا معروف فى علم التفس ...مثلًا عندما نكتب مذكراتنا ونحن نعلم أن لا أحد يقرأها غيرنا – المفروض هذا – أوعندما نرسل خطابًا إلى الله ...هل الله بحاجة لأن يقرأ رسائلنا؟؟ هو المطلع على القلوب ...تفهمت إذن رسالة باربرا، ولكن الغريب كان رد فعلى. لم أستطع أن أتحمل علمى بمدى حزنها على ...

تذكرت رباعية جاهين :
قلبى رميته وجبت حجر
داب الحجر و رجعت قلبى رقيق ..
عجبى !!

نعم ...هذا هو قلبى وهذا هو أنا....لابد أن تعلم باربرا أننى حية ...من البداية وأنا أعلم أنه سيجىء الوقت الذى أخبر فيه باربرا بالحقيقة ...ولكنى لن أستطيع الصبر ..سأفعل ذلك اليوم.

أضمرت شيئًا فى نفسى ...راعيت فارق التوقيت بين لندن ونيويوركوأدرت رقم باربرا الذى وجدته لحسن الحظ فى مفكرتى التى أحتفظ بها فى حقيبة يدى ...رن جرس الموبايل لحظات خلتها ساعات وأخيرًا جاء صوت باربرا تمامًا مثل صوت ياسر بالأمس ...خافتًا حزينًا ..

- آلو
- باربرا ...أرجوك تمالكى أعصابك ...أنا فردوس. والله العظيم أنا وليس هذا مزاحًا.

لم يصلنى أى ردمن الجانب الآخر ...

- آلو ...باربرا. بالله عليك لا تفقدى الوعى الآن تمالكى أعصابك. أنا فردوس لم ألحق بالرحلة المنكوبة ...حدثت أشياء لن أستطيع أن أحكيها الآن ....هل أنت معى؟

أخيرًا جاء الصوت الواهن مرة أخرى ..

- فر.. فر.. فر.. فردوس؟ أحقًا ما تقولين؟ بالله عليكم لا تلعبوا بأعصابى ...لا يجوز المزاح هكذا!!

- والله ليس مزاحًا، أنا فردوس وسأخبرك بأمارة الآن ...أنا الوحيدة التى تعرف كلمة مرورك للصراف الآلى ....
٩٩٩٩
- فردوس، أنت فردوس... ولكن كيف ولماذا؟

- الحمد لله أنت معى الآن... اسمعى لن نضيع الوقت... أعلم تمامًا أنك لا تعملين شيئًا فى نيويورك الآن ...سأرسل لك نقودًا على رقم حسابك فى البنك، مازال معى، اشترِ تذكرة إلى لندن ومن هناك بالقطار إلى برمنجهام. أنا أعمل هنا فى الجامعة الآن، سأنتظرك فى المحطة بعد أن نعرف المواعيد ولكن – أهم شىء – أستحلفك بالله واقسمى لى الآن على ذلك ألا تخبرى مخلوقًا على ظهر الأرض بأنى مازلت أحيا ...أرجوك ..

- حاضر ...حاضر ...أقسم على ذلك.
- فى أقرب فرصة يا باربرا ...أحتاجك فى أمر هام ..

- حاضر .

انتهت المكالمة وأنا فى قمة الإثارة ....تمنيت أن أرى وجه باربرا لحظة أن سمعت صوتى .. أحس بالراحة الآن وأنا أعرف أنها سعيدة وأنها ستنام قريرة العين ....لن تفشى باربرا سرى مهما حدث ...أنا أعرفها ..

أوشك اليوم أن ينتهى وتصورت أننى الآن على استعداد أن أذهب إلى فراشى وأستدعى

النوم ...ولكن هيهات، هكذا أنا ...أيام وأسابيع تمر علىّ بدون أى أحداث ثم فجاة وفى يوم واحد تتابع الأحداث فأكاد لا أستوعبها، ينشغل الفكر ويهرب النوم....

رن جرس الموبايل ...كانت الأميرة العنود. سألتنى إن كنت فى لندن فأجبت بالنفى ....قالت

أن الرواية ستصدر نهاية هذا الشهر ....شهر يناير وأنها سترسل لى نسخة منها موقعة بخط يدها!!

لست أدرى ...أضحك أم أبكى؟...روايتى سترى النور وسيقرأها الملايين رغم أنفهم.

أليست رواية الأميرة ...سيقرأها المتخصصون فضولًا؛ ليطلعوا بأنفسهم على رواية أميرة لم يسمعوا أبدا أنها تكتب أى شىء ....سيقرأها المنافقون ليتشدقوا أمام الأميرة بعد ذلك بروعتها وعظمتها وعمقها ...سيقرأها زوجها وستقرأها العائلة المالكة لعلهم يجدون فيها ما يستلزم الحجر عليها!! كل هؤلاء سيقرأون روايتى ....فكرى ...إبداعى ...أفرح أم أبكى؟ الأميرة ستقف أمام كاميرات التليفزيون والميكروفونات... ستتلقى التهانى وبرقيات الإعجاب وربما ستترجم الرواية أيضًا ليطلع العالم كله على عبقرية الأميرة العربية ...وأنا هنا... فى الظل أدرس لطلبة لا يهم معظمهم إلا الحصول على الدرجة ...أنا هنا فى الظل أضع خمسين ألف جنيه إسترلينى فى البنك لا أعرف ماذا أفعل بها ...

على العموم ...هذا نصيبى وكان هذا قرارى ...اتخذته بعقلانية بحتة ولا مجال للتراجع الآن.

بعد صراع وشد وجذب مع النوم غفوت ساعتين واستيقظت فى الثامنة وبدأت طقوسى.

أعطيت محاضرتى ....وجدت أن من المناسب الآن أن أتكلم عن شخصية من شخصيات رواياتى غير المنشورة ....كان لابد أن أفعل ذلك لأحافظ على توازنى النفسى بعد أن عرفت أن رواية "الأميرة" ستنشر قريبًا ...تكلمت عن شخصية نوال فى روايتى التى أعتز بها ورفضت بيعها ...ليلة صيف باردة ....شخصية نوال مختلفة تمامًا عن شخصيتى ربما كانت أقرب إلى شخصية أمى .. تأثر الطلبة بالشخصية وراحوا يمطرونني بالأسئلة .....أعطانى هذا نوع من التعويض عن الألم الذى أصابنى بالأمس بعد مكالمة الأميرة ...

فى الاستراحة ...ركضت فاتيما ورائى وأخبرتنى أن والدها وافق مبدئيًا على أن يعمل قريبى فى السوبر ماركت ...شريطة أن يقابله أولًا ..

لم أكذب خبرًا.. اتصلت بياسر على الفور وطلبت منه – بل أمرته – أن يركب أول قطار إلى برمنجهام لآن الرجل فى انتظاره .....حاول التملص.. لا أعرف لماذا؟ فى النهاية أخبرته بأنه لن يخسر شيئًا إذا لم يعجبه العمل أو صاحب العمل يعود إلى لندن على الفور.. ثم ذكرته بأنه سيأتى إلى برمنجهام ليرانى فأجاب ضاحكًا: لو قلت هذا من البداية لوافقت بدون مناقشة!

إذن أنا فى انتظار باربرا وياسر ورواية الأميرة- أقصد روايتى – سيكون أسبوعًا حافلًا!!

وصل قطار لندن فى الصباح. لم يكن لدى محاضرات فى ذلك اليوم، ظهر ياسر فخفق قلبى بشدة، احترت كيف استقبله؟ سلام باليد...أم شيء أكثر من ذلك؟ أعفانى هو من الحرج؛ طوقنى بذراعيه برفق وطبع قبلة على جبينى ...ما ألطفه!

حسب الاتفاقأخذته معى بسيارة تاكسى إلى السوبرماركت حسب وصف فاتيما. دخلنا

المكان لم تكن فاتيما موجودة. قمت بالتسوق لأننى قررت أن أدعو ياسر على الغذاء.

رن لى على الموبايل بعد أن أنهى مقابلته...أخذ من يدى المشتروات وخرجنا من السوبر

ماركت ثم قال لى: كله تمام ..
- بجد والله؟
- آه والله.. شغلانة أفضل بكثير من مساعد طباخ ...مسئول المشتروات والتخزين ...أيه

رأيك؟؟
- ممتاز والمرتب؟
- أفضل بكثير..أشكرك بشدة!!
- هايل ...أنت مدعو عندى على الغذاء بهذه المناسبة العظيمة وبعدها سندبر مكانًا لإقامتك.

أنا سعيدة جدًا!!

أنا سيدة مرتبة التفكير لم أكن لأسمح لنفسى – بعد أن اتخذت القرار – أن أنفرد بياسر مرة

أخرى داخل"أربع حيطان". بالكاد استطعت أن أسيطر على نفسى وعلى ضعفى يوم

العشاء الأخير واستطعت أن أنفد بجلدى ...لذا قررت أن أدعو فاتيما أيضًا على الغداء ...أولًا:

لأشكرها على ما فعلته. ثانيًا: لتكون معى أثناء وجود ياسر ..

التقطتنا فاتيما بسيارتها من منتصف الطريق بعد انتهاء محاضراتها وعرفتها بياسرعلى أنه

ابن خال والدى!!

من وجهة نظرى فاتيما جميلة و جذابة...و لكنى لا أعرف هل لفتت نظر ياسر؟

هى خمرية لون البشرة، بنية لون الشعر، دقيقة الملامح إلى حد كبير ...رشيقة وطويلة ليس

صدرها نافرًا كصدرى وكذلك مؤخرتها!! جسدها أقرب إلى جسد الفرنسيات ...

قررت أن أطبخ لهم المسقعة على الطريقة المصرية الصميمة ....تعلمتها من والدتى ...لا يوجد فى الدنيا ما هو أجمل من مسقعة أمى!!

دخل ياسر وفاتيما معى وأنا أطبخ. كانت جلسة مرحة للغاية و إن كان قد بدا على وجه ياسر أنه غير مرتاح لوجود عزول معنا ....فاتيما!

أثناء تناول الطعام قلت:

-يبدو على وجهيكما أن المسقعة ليست كما ينبغى!!

قالت فاتيما: إنها أكثر من رائعة. ما أجمل طعام المصريين!!

قال ياسر: بدون مجاملة.. لم أذق أجمل منها حتى فى مصر ..هل الآنسة فاتيما تستطيع عمل الكسكسى المغربى؟ سمعت عنه كثيرًا ..

- أكيد ويوم ما سأدعوكما عليه ...

كانت جلسة الطعام حميمية ولطيفة. شربنا بعدها الشاى المصرى الصميم ....أنا دائما أحمل فى حقيبة سفرى باكوات من الشاى المصرى المعروف. لا أحب شاى الإنجليزأوالأمريكان. الشاى المصرى هو الذى ذاكرت معه ومع أغانى أم كلثوم من الابتدائى حتى الدكتوراة!!

كانلابد لياسر أن ينصرف. اتفقنا أن يسوى أموره مع الأستاذ ميشيل ثم يأتى هنا فى نهاية الأسبوع ليتسلم عمله ....كان يبدو سعيدًا ..

شكرت فاتيما بشدة على ما فعلته معى وأيضًا لأنها ستوصل ياسر إلى محطة الأوتوبيس ..

نمت هذه الليلة بدون كالميبام فكل الأمور تسير فى المجرى الذى رسمته لها!!

صباح اليوم التالى كنت فى حالة نفسية جيدة ومزاج رائع ، وضعت ماكياج خفيف. لا أدرى لماذا وغيرت التايير وارتديت آخر لونه أفتح قليلًا ....استمعت إلى أراء الطلبة وتعليقاتهم على المحاضرة السابقة، راقت لى بعض أفكارهم ...إنهم يختلفون عن الطلبة المصريين. الطالب المصرى – وبسبب الحالة الاقتصادية – يريد أن ينتهى من دراسته فى الوقت المناسب ليلحق بطابور العمالة الطويل. من النادر أن أجد طالبًا يدرس ويحب ما يدرس. الإنجليز أيضًا يريدونالحصول على الشهادة ولكن بدون "كروتة" هكذا علمهم نظامهم!

كان علىّ أن أتحدث عن الرواية السياسية أو الرواية والسياسة. لم أجد أفضل من رواية الأستاذ نجيب محفوظ "الكرنك" كمثال ...نجيب محفوظ هو من جعلنى أحب الرواية وهو أيضا من أعطانى الأمل ...عندما فاز بنوبل أدركت أن لنا صوتًا يسمع وأن أدبنا يمكن أن يصل للعالمية ... بمجرد أن نطقت بالاسم ...سمعت همهمة فى أنحاء قاعة الدرس. تعرف عليه معظم الطلبة، وتسائل البعض الآخر الذى لم يتعرف عليه ...أحسست بالفخر بابن بلدى، أعطيت لهم نبذة عن الرواية والظرف التاريخى الذى تدور فيه أحداثها ثم جعلتهم يقرأون فصولًا من الرواية مترجمة ...

كانت المحاضرة رائعة وكان التجاوب أكثر روعة ...

قبل أن أغادر الجامعة وفى غرفة الاستراحة جاء زميلى دكتور مايكل روز حيانى ثم قال:

- دكتور فردوس.. زوجتى جلوريا وأنا يسرنا دعوتك على العشاء اليوم فى مطعم سمبسون الشهير ...

ترددت قليلًا، ولكنى قلت لنفسى لم لا؟

- بكل سرور، هذا لطف زائد منكما ..

- من الضرورى أن نخبرك أن الدكتور جمال منصور صديقنا منذ زمن سيكون معنا هو

مصرى مثلك ...
- أهلا وسهلًا بكل سرور ..
- إذن سنمر عليك فى الثامنة مساءً ...أنا أعرف مكان إقامتك ..

رحت أضرب أخماسًا فى أسداس. ما سر تلك الدعوة المفاجئة؟ ....علاقتى بمايكل ليست قوية.هو رجل لطيف ولكننا كنا نقتصر على السلام وتبادل الرأى حول الطقس!! ولا أعرف

زوجته ...ثم من هذا ال "جمال منصور" وهل زوجته ستحضر معه؟

فى تمام الثامنة وأمام المنزل نزلت جلوريا من السيارة وصافحتنى قائلة: أنا دكتور

جلوريا طبيبة النساء والولادة بمستشفى برمنجهام وزوجة مايكل ...

ركبت السيارة ودار بين ثلاثتنا حديث تقليدى تناول انطباعى عن برمنجهام والأحوال فى

مصر ونيويورك وطرائف الطلبة هنا فى الجامعة ...لم أستطع أن أخمن من خلال الحديث

سبب الدعوة...

دخلنا المطعم الفاخر الشهير تصرف معى الدكتور مايكل كجنتلمان إنجليزى أصيل؛ ساعدنى على خلع معطفى وأزاح لى المقعد لأجلس ثم فعل نفس الشىء مع زوجته .....كنت

بلا شك أكثر أناقة من جلوريا؛ هى جميلة الوجه جدًا، ولكنها ممتلئة من أسفل جسدها ولذا لم

يأخذ فستانها الأنيق حظه من الظهور ...

أثنت على ذوق ملابسى واكتفى مايكل بالابتسام مؤمنًا على كلامها ...بعد حوالى عشر

دقائق نطق مايكل وجلوريا فى نفس واحد: ها هو قد جاء ..توجهت برأسى إلى حيث نظروا.

فوجدت أمامى رجلًا، ربما فى أواخر الأربعينات، طويل القامة، ممتلىء القوام، ولكنه ليس بسمين ...أبيض البشرة، أحمر الوجه، خفيف شعر الرأس، ولكنه ليس بأصلع ...تقاطيعه متناسقة ذكرنى بممثل أمريكى شهير لا أتذكر اسمه الآن ...

تقدم إلى المائدة فوقفت جلوريا وأشارت إلىّ قائلة:

- دكتور فردوس... و هذا هو صديقنا العزيز دكتور جمال منصور استشارى الجراحة العامة ..وزميلى فى المستشفى، وقفت وسلمت عليه ...ضغط على يدى بقوة وقال: حمدًا لله على السلامة ...صافح بعد ذلك مايكل بحرارة وجلس ...جلس بجانبى!

أدارت جلوريا – بالإنجليزية طبعًا – حوارًا دار معظمه عن أحوال مستشفاهم. لاحظت أنه يتكلم الإنجليزية بطلاقة وبلكنة إنجليزية سليمة لا تبدو فيها الإضافات المصرية المعهودة!!

قال مايكل: لا بد أن نطلب الطعام الآن.تعرفون تقاليد السمبسون ...أنا أعرف طلبى وكذلك جلوريا. اطلب يا دكتور جمال وأنت يا دكتور فردوس ..

نظرت فى قائمة الطعام ...لم أهتم بانتقاء طعام أرغب فيه لأننى كنت مشغولة بالتفكير: من هذا؟ ولماذا حضر؟ ...هل هى دعوة من مايكل ليجاملنى وفى نفس الوقت يجامل صديقه وزميل زوجته؟ أم أن هناك سبب آخر؟

انتقيت طعام تقليدى جدًا بالرغم من أنه ليست هذه عادتى. طلب الدكتور جمال وجبة بحرية وطلب معها نبيذًا أبيض. أما جلوريا ومايكل فقد طلبا براندى مع وجبتهما!! انزعجت من فكرة أن أتواجد على مائدة عليها خمور .....لست متدينة جدًا، ولكن الخمر عندى خط أحمر!!

بعد انصراف الجرسون قال مايكل: الدكتور جمال صديقنا منذ زمن ربما أكثر من عشر سنوات وكان لنا شرف زيارة مصر فى ضيافته ...كانت رحلة ممتعة... نحن نعرف مدى ارتباطه ببلاده؛ ولذا عندما علمنا بأن لدينا أستاذة مصرية فى الجامعة كان لا بد أن نعرفه عليها ..

أخ خ خ.....يبدو أننا أمام زواج معرض جديد ...حتى فى بريطانيا يا ربى؟

قال جمال بالعربية: آسف يا دكتورة فردوس، أنا أتوق شوقًا لأن أتكلم بالعربية، ولكن لايبدو هذا لائقًا فى وجود مايكل وجلوريا ....

- أتفهم ذلك يا دكتور جمال ...تفضل ...

قررت أن أبدأ بالهجوم ...الهجوم خير وسيلة للدفاع. لن أترك نفسى فريسة للوساوس وضرب الأخماس فى الأسداس ....قلت بالإنجليزية:

- لماذا لم تحضر زوجتك معك يادكتور جمال؟

الغريب أنه رد بالعربية وقال:

- الحقيقة أنا غير متزوج حاليًا، كنت متزوج حتى عامين مضيا والآن أنا منفصل عن زوجتى ...

إذن فاستنتاجى صحيح ....حاولت أن أتذكر هل قلت لأحد أننى منفصلة عن زوجى؟ ربما قلت لفاتيما ربما أيضًا لمسز سكارلت مسئولة الإقامة، ولكن هذا الرجل الأنيق الوسيم الذى يعيش فى بريطانيا منذ زمن ...هل من الممكن أن يلجا لزواج الصالونات ....هذا يبدو

غير منطقى!!

جاء الطعام ...وانهمك كل منا فى افتراس وجبته ...نعم.. لم أحاول أن أظهر الأدب والرقة

وأتناول جزءًا وأترك جزءًا من الطعام كما تفعل معظم الفتيات فى مصر أمام المرشحين للزواج منهن!! وبعد وقوع الفأس فى الرأس وإنجاب البنين والبنات لا يترددن فى أكل أزواجهن حتى!!

لا.... أكلت على طبيعتى وأنهيت صحنى لأننى كنت جائعة والطعام بالفعل جيد ...

كنت أراقب الرجل كان يأكل وجبته البحرية باحتراف شديد!! افترس سمكته بكل أناقة

وقشر الجمبرى بدون ربما أن تتلوث يداه. لولم أعرف منذ لحظات أنه جراح لخمنت ذلك!!

- حضرتك منين من مصر ...قالها بالعربية لأن مايكل وزوجته كانا منهمكين فى حديث خافت.

- من القاهرة.. أسكن فى مدينة نصر ...
- أنا من الأسكندرية ...

كان يجب أن أخمن ذلك ...هذه الاحترافية فى أكل السمك!!

- ولكنى لست إسكندرانى تقليدى؛ أنا إسكندرانى يعتقد أن الأسكندرية هى أجمل مدينة فى

العالم!
ضحكت ولم أرد ...

- وحضرتك ...ماذا تدرسين للإنجليز؟

- أنا أساسًا أستاذة أدب أنجليزى، ولكن لى اهتمام خاص بالأدب العربى وخصوصًا الرواية.

طلبت منى الجامعة أن أدرس الأدب المقارن وأن ألقى الضوء على الرواية العربية ..

- ممتاز ...أرى أنك تستمتعين بعملك ....ليس بالنسبة لك وظيفة والسلام!

- بالضبط ...ولكن كيف عرفت؟

- من مشيتك السريعة القوية وأنت متوجهة للجامعة ليست خطوة إنسان يؤدى وظيفته فقط لأكل العيش ...

- وأين رأيتنى حضرتك وأنا أمشى؟

- آه ....أنا آسف لم يخبرك أحد على ما يبدو ...أنا جارك أسكن فى البناية التى أمام بنايتك مباشرة وأراك يومًا بعد يوم وأنت متجهة للجامعة بكل نشاط وتفائل!!

- الحقيقة هذه مفاجأة لى ...تصورت أن ...

- تصورت أننى مصرى وأنك مصريةفقررالزوجان أن يعرفونا ببعض؟ لا طبعًا ...أنا رأيتك وخمنت أنك مصرية أو على الأقل عربية. سألت عنك فعرفت أنك تعملين مع مايكل فطلبت منه أن يدبر هذا اللقاء لأننى بأشد الحاجة لأن أتكلم مع أحد من "ريحة مصر" أرجو ألا يكون هذا الاعتراف قد سبب لك أى مضايقة ..

- لا أبدًا... ولكن كيف تستطيع من مشية إنسان أن تعرفه وأنت جراح ولست طبيبًا نفسيًا؟

- من كثرة أسفارى وتجوالى فى الدنيا والتقائى بمئات من الأشخاص على مدى عمرى.

تعلمت أن أعرف الكثير عن الناس من مشيتهم من ملابسهم، من ألفاظهم ...

- وماذا استنتجت عنى بخلاف مسألة حبى لمهنتى؟
- مش حاتزعلى؟
- إطلاقًا ..
- على العموم هى كلها أشياء جميلة ....ربما أشياء قليلة لن تعجبك ....

- أرجوك أبدأ بها ...

- أعتقد أنك شديدة الاعتداد بنفسك لدرجة قد تصل للغرور ....وربما أيضًا أن اهتمامك بذاتك قد يصل إلى أنك ربما لا تشعرين بوجود آخرين حولك!!!

ضحكت بصوت عال لفت نظر جلوريا ...فقال جمال:

- بالله عليك ما الذى أضحكك فى عبارتى الأخيرة؟

- الحقيقة يا دكتور جمال أنك أصبت فى الشق الأول ...أنا بالفعل- والحمد لله- شديدة الثقة بنفسى وإن كان هذا لا يصل أبدًا للغرور ....أما الشق الثانى فيؤسفنى أن أخبرك أنك مخطىء تمامًا فباختصار شديد أنا إنسانة شقيت بالآخرين ...

- خلاص يا ستى واحد صفر...أنت الكسبانة. هل يمكننى أن أخبرك بأشياء أخرى مع احتفاظى بحقى فى أن أرجع يومًا وأعرف تفاصيل عبارتك الأخيرة؟

- كلى آذان صاغية ...ومن يدرى ربما تسمح الظروف وأفصل ما أجملت فى عبارتى ...

- أنت كريمة ومعطاءة، وهذا يبدو واضحًا من مشيتك وجلستك وكلامك، وقد يمكننى أن أعرف المزيد والمزيد إذا سمحتِ وتكلمتِ أكثر ...

- .....

- بجد بجد، هل أثقلت عليك؟ هل أنا بايخ.. لن أزعل لو قلتيها ...

- بجد بجد.. حضرتك لطيف جدًا وألطف ما فيك هو أريحيتك وانبساطك ..وهذا قد لا يتفق مع مهنتك التى قد يراها البعض مهنة صعبة وجادة ..قل لى هل سميت "جمال" تيمنًا بعبدالناصر؟

- برافو عليك ...أنا ولدت مع الثورة وقد أعجب والدى بناصر فسمانى جمال ...ولكن للأسف تغيرت وجهة نظره فى الزعيم، ولكن بقى الاسم معى ....هل تحبين عبد الناصر؟

- أنا واحدة من المستفيدين من الثورة ومن عبد الناصر ....أنا ابنة سائق قطار تعلمت

بالمجان إلى أن حصلت على الدكتوراة ...ولكن هذا لا يمنع أن أكون ضد الدكتاتورية مهما كان عدل الدكتاتور وضد كبت الحريات والقمعو سيادة أهل الثقة حتى وإن كان هذا لضمان الاستقرار...

لست أدرى لماذا – وللمرة الثانية – أذكر سائق القطار ....مرة أخرى ربما لأبرز ما كنت أحاول أن أخفيه فيما مضى تعبيرًا عن بداية حياة جديدة لا مجال فيها للخوف؟ أم أننى إدراكًا منى للموقف المحرج الذى قد أوضع فيه فتتكرر مأساة حاتم؛ قررت أن "أجيب من الآخر" وأفهم جمال طبيعة طبقتى الاجتماعية؟ هل أتصرف اليوم بوحى من تجربتى المؤلمة.

قال جمال بهدوء شديد: دكتورة فردوس ...أنا شديد الإعجاب بك ولولا أننى أعرف أنك منفصلة عن زوجك وغير مرتبطة لما سعيت وراء هذه المقابلة ...أرجو أن تعطينى فرصة معك، وتأكدى أننى لن أثقل عليك؛ لم أتعود أن أفرض نفسى على أحد ...

ابتسمت فى خجل غير متصنع وقلت:
- باختصار أنت تريد أن نلتقى مرة أخرى بدون مايكل وجلوريا؟
- يا سلاااام، أحب المرأة الذكية والعملية. نعم إذا لم يضايقك هذا ...
- حاضر ...واستكمالًا لمسلسل الصراحة بيننا، سأقول لك أن لى صديقة أمريكية ستحضر لزيارتى هذا الأسبوع وأنا كنت أنتظر زيارتها بفارغ الصبرفإذا سمحت لى أن نؤجل لقاءنا لمابعد ذلك أكون شاكرة...
- سيكون هذا أطول أسبوع فى حياتى ...ولكنى سأنتظر.هذا هو الكارت الخاص بى، اتصلى بى عندما تجدن نفسك جاهزة...سأصبر نفسى بمشاهدتك وأنت تسيرين للكلية يومًا بعد يوم!!!

انتهى العشاء، ودعنا جمال وعدت مع جلوريا ومايكل ....عرفت من جاوريا أن جمال كان

متزوجًا من إنجليزية زواجًا دام عشر سنواتوقد انفصلا بالطلاق وله منها ولد وبنت

يعيشان معها ...

بت سعيدة هذه الليلة، والحمد لله أن غدًا إجازة لأننى لن أستطيع أن أنام بسهولة ....سعيدة أنا، ولكننى مثل من كبل نفسه بخيوط عنكبوت حريرية دقيقة تشل حركته ...علاقتى غير

المنطقية مع ياسر. استدعائى لباربرا وما أضمرته فى نفسى بالنسبة لها ...وخلال أيام

سيصل ياسر ويقترب من جديد، ثم ظهور جمال المفاجىء فى حياتوقبولى لاقترابه منى

من حيث المبدأ ....اندماجى فى التدريس ببرمنجهام باسمى الحقيقى وهذا – بلا شك –

سيكشف لعبتى أجلًا أم عاجلًا ....ماذا أريد بالضبط وكيف تطورت الأمور بهذه السرعة؟

ومع ذلك فأنا سعيدة ....بل إننى لم أكن فى حياتى أسعد مما أنا الآن!!

تخلصت من قيودى ....معى المال والصحبة الحلوة ....لا شىء ينغص على حياتى إلا تذكرى

من حين لآخر أن الرواية ستصدر قريبًا باسم العنود!!!

-آلو ...دكتور فردوس؟ أنا باربرا سأركب الطائرة إلى لندن يوم الأربعاء وسأبيت ليلة هناك

ثم أركب قطار برمنجهام فأصل مساء الخميس ...

- ممتاز يا باربرا ساكون فى انتظارك فى المحطة ...

الحمد لله سمعت باربرا الكلام!!

أخيرًا باربرا ....سنستعيد معًا أيامنا الجميلة فى نيويورك ....

باربرا ربما فى الثلاثين ...تأخرت قليلًا فى التعليم بسبب تجربة زواجها المبكر جدًا من

جندى المارينز الذى مات فى عاصفة الصحراء، وترك لها صبيًا جميلًا هو ستيوارت أسمته على اسم والده الذى لم يره!! بدأت من جديد والتحقت بالجامعة وهى إلى الآن لا تدرى لماذا قررت أن تدرس اللغة العربية. هل لأن حبيبها قد مات فى هذه البلاد؟

قررت الجامعة أن تعينها كمساعدة لى خلال فترة تعاقدى هناك....عندما رأيتها لأول مرة لفت نظرى الحزن فى عينيها، ووجهها الجميل وأنفها الذى يغطيه النمش، وملابسها التى تختلف عن ملابس الطالبات الأخريات .....فساتين طويلة وأحذية بدون كعب ...لاحظت رغبتها الدائمة فى أن تنفرد بنفسها ...

لست أدرى لم عينوها هى بالذات لتساعدنى؟ هل كان هذا تطوعًا منها؟ بينما وجدت الأخريات أنها قد تكون مهمة شاقة؟

ساعدتنى باربرا كثيرًا واستطعت من خلالها أن أتعرف على نيويورك وأمريكا وألهمتنى أفكارًا جديدة لرواياتى ....أنا أيضًا ساعدتها ....ساعدتها على الخروج من حالة الحزن المستبعد زواله –على زوجها. ساعدتها في الحصول على موضوع لرسالة الماجستير وعلمتها اللغة العربية باللكنة المصرية طبعًا!

حرضتها على أن تنسى الماضى عن طريق فرص الحاضر ....الشباب الذين يرغبون فى التعرف عليها والخروج معها .....والغريب أنها وهى مساعدتى كنت أنا الذى أساعدها: أرعى لها ستيوارت الصغير عندما تخرج هى للقاء "جيمى" صديقها الجديد ...كانت العلاقة بيننا جميلة وحميمة ...كيف هانت علىّ؟ كيف هان علىّ أن أتركها فريسة للحزن وهى التى

بالكاد استطاعت أن تفيق من حزنها على ستيوارت؟ كيف طاوعتنى نفسى؟

لا أدرى بالضبط ماذا حدث؟... كان فى نيتى أن أطلعها على الحقيقة فى الأيام الأولى، ولكن ربما أخذتنى الأحداث المتلاحقة فنسيت! لم أتخيل أنّ قلبى بهذه القسوة..

وقفت أمام رصيف القطار أنتظر وصوله بفارغ الصبر. أخيرًا فتح الباب وبدأ نزول الركاب. باربرا وصلت، لم يتغير فيها شىء ....أعتقد أنها لم تتعرف علىّ بسهولة، وقفت أمامها مباشرة وابتسمت. ركضت نحوى واحتضنتنى قائلة: تبدين رائعة بهيئتك الجديدة، لم أتعرف عليك ...كان التعليق الأمثل هو أن أقول لها مقولة عادل أمام الشهيرة فى المسرحية الخالدة شفتينى وأنا ميتة؟ أجنن وأنا ميتة!!

- باربرا ..افتقدتك بشدة. آسفة ...لست أدرى كيف فعلت ذلك، سأحكى لك كل شىء فيما بعد!

طبعًا أخذتها إلى الاستوديوو تناولنا الطبيخ المصرى الذى طالما صنعته لها فى نيويورك ..نقلنا سويًا كنبة غرفة المعيشة إلى غرفة نومى التى سننام فيها سويًا ..كل هذا ولم نتطرق على الإطلاق لما حدث قبل ثلاثة أشهر!! ولكن ...بعد أن احتسينا النسكافيه ودخنا المارلبورو الأحمر ...نفثت دخان سيجارتها وقالت:

- بالله عليك .. احكى لى ماذا حدث بالضبط ...

حكيت لها قصة المطار- بعد أن تركتنى- بالتفصيل الممل ....اختلاط بطاقات الصعود...سرقة الموبايل ...مكتب الاستعلامات ...بياتى بالفندق

و عندما توقفت عن الكلام قالت:

- نعم ولكن ما الذى جعلك تقررين أن تظلى فى نظر الناس ميتة؟

- مهما حكيت لك فلن تتخيلى ....كيف جاء إلىّ هذا الخاطر ..وكيف أصبح هاجسًا ثم قرارًا كيف دار فى عقلى شريط حياتى بهذه السرعة؟ وكيف صعدت إلى سطح ذاكرتى كل لحظات التعاسة والإخفاق والصدمة؟ ....لست أدرى لماذا تصورت وقتها أن خلاصى فى أن أنهى هذه الحياة وأبدأ حياة جديدة ...أبدأها كما أريد ...هل كنت أنتقم؟ أنتقم من محمود؟من أبى؟ من زملائى فى الجامعة؟ من العميد السابق؟ من والد حاتم؟ لا أعرف، ولكنى كنت شديدة الاقتناع وقتها بما أفعل والغريب يا باربرا أننى مازلت مقتنعة إلى الآن ...و لا بد أن أعترف لك أننى سعيدة ...بل سعيدة جدًا ، وقد اكتملت سعادتى الآن بك ...

ربتت باربرا على كتفى ونظرت فى عينى وقالت:

-نعم يا فردوس.. ولكن ما فعلتيه – و بجميع المقاييس – خطأ.. بل خطأ كبير ...لا يمكنك الاستمرار فى ذلك، إنها لعبة خطرة لا تقدرين عواقبها ..

- أدرك ذلك تمامًا.. وأعلم أنه لابد من قرار.. ومن أجل أن أتخذ القرار الصحيح لابد أن أقوم ببعض الخطوات، وستقومين أنت بمساعدتى فيها – إذا وافقت طبعًا –

- سأوافق بلا شك ...ولكن ما نوع الخدمة التى أستطيع أن أؤديها لك؟

- قبل أن أخبرك، لا بد أن تعرفى المعطيات الجديدة ...

استمرت السهرة بنا حتى فجر اليوم التالى ...حكيت لها كل شىء ....الرجل الإسرائيلى فى مطعم باراديزو ....السفر إلى لندن ....مطعم الروشة ...ياسر.. الثلاثى سلمان ومرزوق والعنود ....التخلى عن واحد من أبنائى ...إلى أن وصلنا إلى جمال منصور ...

لم تستطع باربرا أن تخفى دهشتها وانبهارها بل استمتاعها بما أحكى ...قالت:

- كل هذا يحدث فى ثلاثة شهور فقط؟
- نعم يا باربرا، هل فهمتِ الآن لماذا أشعر بهذه السعادة؟ لقد أعطت لى التجربة حرية فى الحركة و جرأة فى اتخاذ القرار ...لم تكن عندى ...

- قولى لى إذن ما الذى يمكن أن أؤديه لك؟
- لو قلت الآن لن نستطيع أن ننام هذه الليلة وأنت مرهقة، ساخبرك غدًا ...أين تركت ستيوارت؟

- مع والدتى ...إنها تعيش الآن أجمل أيام حياتها وهى ترعاه!!

استطعت أن أحصل لباربرا على تصريح لحضور محاضرتى ...قال لى دكتور برادلى أن هذا ممنوع، ولكنه سيسمح لها بهذا استثنائيًا على اعتبار أنها طالبة ماجستير وفى نفس المجال ... انطلقت معها فى الصباح إلى الكلية. استطعت أن ألمح من أين يستطيع جمال أن يراقبنا ...لمحت خياله من وراء الستار فى البناية المقابلة .....أحسست بتيار سعادة يسرى فى بدنى!! دخلت قاعة الدرس وعرفت الطلبة على باربرا واستكملت درسى عن الرواية السياسية العربية.. لاحظت باربرا كما قالت لى بعد المحاضرةأن أدائى مختلف ...قالت بالحرف الواحد: فى نيويورك كنت تدرسين بحرفية بالغة واليوم أراكِ تدرسين بنفس الحرفية مضاف إليها اندماج غير طبيعى يكاد يصل إلى حد التوحد....فأجبت: ألم أقل لك يا باربرا؟ فى غرفة الاستراحة تقابلنا مع فاتيما ....أبدت ارتياحًا واضحًا لباربرا فأسعدنى ذلك ..

انفردت مرة أخرى بباربرا فبادرتنى بالسؤال:

- هل ستطلعينى على مهمتى الآن؟

- نعم ...باربرا.. أقسم بالله أنك لو رفضتِ أداء المهمة فلن أغضب ....أنت حرة ولكن اعلمى أن مهمتك هذه ستسهل علىّ أمور كثيرة ....ألم يكن حلمك أن تزورى مص؟...هل تذكرين؟ لقد كنت على وشك أن تأتى معى فى أجازتى لولا ظروف ستيوارت ...

- نعم أتذكر ...

- إذن فالحلم سيتحقق ..تذهبين للقاهرةوتتصلين بمحمود وتذكريه بنفسك هو بلا شك يعرفك من زيارته السابقة ...تطلبين مقابلته وتخبرينه بأنك تريدين أن تزورى قبرى!! بالتأكيد سيدور بينكما حوار ....حديث طويل ستستطيعين أن تعرفى منه أخباره ومشروعاته ...أريد منك أن تستخدمى كل ما أوتيته من ذكاء لتعرفى منه كل ماحدث خلال الشهور الثلاثة الماضية ..لن تعجبك لكنة محمود فى الإنجليزية، ولكنكما ستتفاهمان على أى حال...بعد ذلك ستطلبين منه أن يأخذك لوالدى ....طبعًا بابا لا يعرف أى كلمة إنجليزية!! لذا سيقوم محمود بالترجمة ...حاولى أيضًا أن تعرفى من والدى أى شىء ...مشاعره، نواياه ...نفس الشىء سيحدث مع إحسان وأولادها والتوأم لو كانا بمصر ...

أعرف أنها مهمة سخيفة....ولكن الفضول يقتلنى ...أريد أن أعرف ماذا حدث بالضبط بعد وفاتى ....طبعًا أنت ستمهدين لحديثك بأنك قد فجعت بنبأ وفاة صديقتك الحميمة، وأنك تحاولين أن تسترجعى سيرتها مع من أحبتهم وحكت لك عنهم خلال العامين الماضيين ...أعرف

مواهبك جيدًا يا باربرا وأعرف أنك ستقومين بمهمتك على أحسن وجه فتدخلى السرور والراحة على قلبى ....هل توافقين؟

- فردوس ....سألبى طلبك إذا كان هذا يسعدك ...ولكنى أريد أن أعرف لماذا تريدين الاستمرار فى هذه اللعبة؟

- سبق أن قلت لك أننى بحاجة لاتخاذ قرار والقرار لا يأتى إلا بمعطيات وأنت التى ستأتى بهذه المعطيات ..

- أو كى، ولكن هناك شىء أريد أن أقوله ..قلت لك منذ قليل أنك قد أصبحت تدرسين باندماج يصل إلى التوحد التام ...والآن أقول لك أن صفتك كروائية، ومتفوقة فى هذا المجال بالرغم من أى شىء بدأت تتغلب عليك حتى أنك تعيشين الآن وكأنك تكتبين رواية ...أرى أنك تحاولين الآن أن ترسمى حياة جديدة وأنت لا تدرين بالضبط. هل ترسمين حياة لكولمن حولك أو تكتبين رواية وتحاولى أن تحبكى نهايتها كأحسن ما يكون؟ أعرف أن كلامى صعب، سأحاول أن أكون أوضح من ذلك ...هل أردتِ أن تظلى ميتة فى نظر الدنيا كلها لتستطيعى أن تكتبى رواية فريدة؟ هل كان هذا دافعك؟ وحتى لو لم يكن هذا دافعك فأنا أعتقد أنك قد اندمجت بشدة وتوحدت مع الحدث و تريدن الآن أن تحبكى الرواية ....قد يكون هذا قمة الاحتراف ولكن معذرة قد يكون أيضًا بداية لما هو أخطر من ذلك!!

فهمت طبعًا ما تقصده باربرا ....الانفصام؟ لفتت نظرى- من كنت أظنها عادية القدرات - إلى شىء لم يخطر ببالى إلا الآن ...هل سأفقد عقلى؟

- لا لا يا باربرا ...الموضوع أبسط من ذلك، أنا واعية لما يحدث وأريد إنهائه. هذا كل ما

فى الأمر ..أرى أنك موافقة ....سنحجز تذكرتك غدًا والإقامة أسبوع فى فندق خمس نجوم. والبرنامج أنا كتبته بيدى وسيتضمن زيارة الأقصر وأسوان فى أفضل موسم ...شهر يناير... ولا تهمك التكاليف، البركة فى فلوس العنود ...ما ستقدمينه لى أغلى عندى من كنوز الدنيا ....

بعد سهرة طويلة، أولًا: مع فاتيما وباربرا عندى فى الاستوديو ثم نصرفت فاتيما وبقيت مع باربرا نقلب فى الماضى القريب؛ حكت لى عن تطور علاقتها بجيمى وكيف أنها لا تعتقد أنه سيكون أب جيد لستيوارت أن هذا ما يهدد علاقتهما ...رحنا نتحدث حتى أنهكنا الكلام فنمنا. استيقظت باربرا على صوت جرس الباب، كان رجل البريد ترك طردًا فأراد أن ينبهنا.

تطوعت باربرا بالقيام. أخذت الطرد من الأرضية وأيقظتنى قائلة: طرد باسمك يا فردوس.

هل هو من الجحيم يسألون عن سبب تأخرك؟!

فركت عينى وأخذت الطرد وفتحته بدون أن أعرف الراسل، وجدت كتابًا مطبوعًا بأناقة شديدة ...الغلاف أحمر وعليه رسم لامرأة بشعر غجرى مجنون – على رأى نزار قبانى –و فى منتصف الغلاف عنوان:"أجمل الأيام" وفى نهاية الغلاف كلمة"رواية " وتحتها:

الأميرة العنود..

راحت باربرا تراقبنى وأنا أقلب فى الكتاب ....ظهره مكتوب عليه بخط أسود واضح

"استطاعت الأميرة العنود فى هذه الرواية أن تفتحالأبواب المغلقة فى عالم الرواية العربية وأن تحطم التابوهات التقليدية وذلك بموهبة فى السرد لم نرها عند كثير من الروائيين

المحترفين"....الدكتور صلاح عبد العظيم الناقد الأدبى المعروف.

يا إلهى ...ما الذى أشعر به الآن ...قلبى ينبض بقوة أشعر أنه يكاد يخرج من صدرى أظن أيضا أن نبضاته غير منتظمة ...هل سأموت؟ ما هذا العرق البارد الذى يتساقط منى بغزارة وأنا فى بريطانياوفى عز الشتاء ....أكيد سأموت الآن ....باربرا ...أنا أموت خذينى للحمام أريد أن أتقيأ ....

أسندتنى باربرا على كتفها، سرت معها متثاقلة لا أستطيع أن أرفع قدمى من على الأرض. ما كدت أصل للحمام حتى أفرغت كل ما فى جوفى.....لم أتقيأ فى حياتى إلا ثلاث أو أربع مرات وفى كل مرة كان الموت بعينه .... أخر مرى تقيأت فيها كانت يوم عرفت أن أمى مصابة بالسرطان ....مرة أخرى كانت عندما ظهرت نتيجة الثانوية العامة ....اليوم كانت أشد مرة ....مسكينة باربرا أحسست أنها تموت معى ....لا تدرى ماذا تفعل ....تغمغم بكلمات لا أفهمها، وفى النهاية صرخت وقالت: ماذا أفعل ...ماذا يفعلون هنا ليستدعوا الإسعاف أو الطبيب؟ قلت لها بصوت واهن يكاد لا يسمع ....لا لا سأكون بخير. اصنعى لى كوبًا من الليمون وأعطينى القليل من الملح ....سأكون بخير ...

هل من المعقول أن يحدث هذا. لم أتصور أبدًا أن يكون هكذا رد فعلى عندما أرى الرواية مطبوعة ....كانت الأميرة على حق عندما قالت لى: ربما تغيرين رأيك عندما تجدن الرواية منشورة ....يا إلهى ...لقد كدت أن أموت ...

ما أثر فى فعلًا هو كلمات أستاذى وأستاذنا جميعًا الدكتور صلاح عبد العظيم ....دكتور

صلاح عرضت عليه ذات يوم روايتى "من ثقب الباب" والتى أعتبرها أصدق أعمالى.

علق عليها قائلًا: بداية لا بأس بها ولكن بعد الاهتمام بجوهر الشخصيات أكثر من ذلك،

المسألة ليست مجرد سرد ....

صلاح عبد العظيم يكتب هذا الكلام عن رواية الأميرة؟ هل هذا رأيه بالفعل؟

هل قرأ الرواية؟

وإذا كان هذا رأيه فعلًا فلماذا اختلف رأيه معى وأنا نفس المؤلفة؟ كم دفعت له الأميرة

ليكتب هذا الكلام؟ و تريدين منى يا باربرا أن أعود للحياة!!! لماذا؟

أخذت جرعة الملح على لسانى وارتشفت من عصير الليمون فبدأت أستعيد توازنى ...قالت

باربرا: ماذا حدث لك.. لقد كدت أن أموت معك وأنا أرى الحياة تنسحب تدريجيًا منك ..ما

هذا الكتاب الذى جعلك تقتربين من الموت؟

- إنها الرواية يا باربرا ...."أجمل الأيام" التى بعتها للأميرة وعليها تعليق من ناقد كبير فى

مصر ....يشيد بالرواية وبالأميرة!!

- وما الجديد فى ذلك؟ أنت تعلمين أن هذا سيحدث..

- نعم نعم.. ولكن تخيل الأمور شىء وحدوثها شىء آخر ...انهرت تمامًا عندما رأيت الرواية

منشورة. لم يغيروا فيها شىء ...لم أتحمل.. بالضبط كاننى أرى ابنى أو ابنتى فى حضن امرأة

تدعى أنها أمه.

- هونى على نفسك ...كان يمكن أن يحدث هذا بدون علمك، سرقة، على الأقل أنت قبضت

ثمنها ...ثم إنك قلت أنك قد بعت أسوأ إنتاج لك فلم الحزن؟

- سأحاول أن أقنع نفسى بهذا الكلام ...

سافرت باربرا ...كانت سعيدة، لم تتخيل أن تأتى لها فرصة كهذه لزيارة مصر من دون أن تدفع مليمًا واحدًا!! ولكى أرفع عنها أى حرج أعدت على مسامعها أكثر من مرة أن تنفق كيفما تشاء فهى فى مهمة تتعلق بمستقبل حياتى كلها. وحياتى تستحق أن أنفق عليها!!

كان لابد أن أفى بوعدى مع جمال وأن اتصل به، بالرغم من أن بروتوكولات الدهاء النسائى الفطرى تتنافى مع ذلك، ولكن للضرورة أحكام؛ فياسر على وشك الوصول وأخشى أن أضعف أمامه فكان لابد من وجود الجراح الوسيم كحائط صد ..

- دكتور جمال ....كيف حالك؟
- مش ممكن، دكتورة فردوس؟ خفت ألا تتصلى ...
- لقد وعدتك ..
- هل سافرت صديقتك بالسلامة؟
- نعم ...متى تحب أن نلتقى؟ وأين؟
- هل أعجبك طعام السمبسون؟
- أكيد ..ولكن هل العشاء ضروري؟
- الحق أن العشاء يتيح لنا الوقت، كما أن المكان لطيف و دافىء ...
- مفيش مانع .
- إذن حددى الزمان ...
- أى يوم مساءً، فأنا لا أعمل بعد الخامسة ...
- خير البر عاجله، سأمر عليك غدًا فى الثامنة ...بالمناسبة و معذرة هل لك اسم تدليل ينادونك به أنا متأكد أن لك اسمًا آخر وسأكون سعيدًا لو ذكرتيه لى!!!

- نادنى بأى اسم واختر لى الاسم الذى تريد، ولكن بالله عليك لا تنادينى "دوسة" فهكذا كان ينادينى زوجى وكنت أكاد ألقى بنفسى من الشباك عندما اسمع منه هذا الاسم!!

- لا لا وعلى أيه بلاش دوسة خالص ....

كان محمود بالفعل ينادينى بدوسة، ولكنى لم أغضب أبدًا من ذلك ...لست أدرى لماذا اخترعت هذه الكذبة؟؟

طلبت من باربرا ألا تتصل بى على الإطلاق إلا للضرورة القصوى. لا أريد منها تقريرًا يوميًا عن الرحلة. أريد أن أعرف منها التفاصيل جملة واحدة عندما تحضر!! فقط تخبرنى بموعد وصولها .

شغلت رحلة باربرا تفكيرى تمامًا ، أنام وأصحو وأنا اتخيل ما ستقوله لى عندما تعود وكالعادة كانت هناك سيناريوهات متعددة ...أن تجد مثلًا محمود وقد تزوج ...مثلًا فى إحدى السيناريوهات تزوج محمود من صديقتى سهير المطلقة حديثًا!! و فى سيناريو آخر رفع الستار عن الزوجة التى تخيلت أنه تزوجها فى السعودية!!

كان يشغل بالى أيضًا ما ستقوله باربرا عن أبى ، هل ساءت صحته بعد أن علم بوفاتى؟ هل إحسان لا تزال ترتدى الحداد على؟

لم أبدأ فى نسيان باربرا إلا عندما بدأت أستعد للقاء جمال ....اشتريت فستان جديد ومعه توابعه ...لم أكن أرى أى داعٍ لأن أضع الماكياج، ولكنى قررت أن "أتمكيج" فى هذا اليوم اشتريت أنواعًا حديثة وغالية ...وبعد عودتى من الجامعة ومن التسوق صنعت قناع الزبادى والخيار!! وضعته على وجهى إلى أن حان وقت ارتداء ملابسى ...

بصراحة ...كنت فى صورة ترضينى تمامًا و تجعلنى واثقة من نفسى مائة بالمائة ..

رأيت سيارة جمال تتحرك أمام البناية، وقبل أن يرن على حسب الاتفاق كنت أنا قد نزلت ...

نزل من السيارة وفتح لى الباب ...و عندما جلس أمام المقود قال:

- طبعًا أنت جميلة "طول الوقت"، ولكنك اليوم متألقة!!
- شكرًا
- كان أسبوعًا طويلًا ومملًا، ولكنى كنت أراكِ يوميًا مع صديقتك الأمريكية؟ هل هى أمريكية

فعلًا ؟ تبدو مخلطة ..
- لا ..أمريكية أصيلة ...كانت مساعدتى فى نيويورك ..
- نيويورك ....لندن ...برمنجهام ....يبدو أننى لا أعرف قدرك الحقيقى. لم لا تحكى لى عن

نفسك؟
- هل من الممكن أن أؤجل هذا لحين الوصول للمطعم؟
- طبعًا ..
فى السمبسون، قضيت وقتًا لاختار الطعام هذه المرة ...اخترت الطعام الذى أتوق إليه

...إحساس لطيف لأى أنثى أن تشعر أن معها رجل سيتولى دفع فاتورة عشائها!!

فى مصر كان محمود يدعونى على الغداء أوالعشاء فى عيد ميلادى أو ميلاده. أما إذا

اضطرتنا الظروف لأن نطلب طعام أو نتناول الطعام فى الخارج؛ فكان الأمر لا

يتم إلا بعد أن أتعهد أنا بالدفع أو اقتسام المبلغ!! لم نكن بحاجة للكلام، كانت هذه اتفاقية

ضمنية بيننا ....كيف تمكن محمود من أن يجعلها أمرًا واقعًا ؟وتحت أى مسمى؟ لست أدرى

إلى الآن ...

- يمكننى الآن أن أتكلم: أنا فردوس عبد الرحيم الوراق.. أستاذة مساعدة بكلية الآداب فى

مصر وأحاضر أحيانًا فى بلاد أخرى ....متزوجة واتفقت مع زوجى على الانفصال، ولكن

– وقد يكون هذا مفاجأة لك – لم يحدث الطلاق بعد. فقط اتفقنا أن ننتهز فرصة هذه السفرية

لنعيد التفكير فى الأمر ...ولكنى قررت من أول يوم ....لقد التزمت معك الصراحة، وعملًا

بهذا المبدأ أحب أن أخبرك أننى أضع عدسات لاصقة خضراء، وهاهى – قمت بخلعها من عينى بسهولة، وأخرجت علبتها من حقيبتى ووضعتها فيها وهو ينظر إلىّ على شفتيه ابتسامة شديدة الهدوء!

- أضعها على سبيل التغيير وليس لأخدع بها أحدًا، كما أننى- للعلم - نظرى ستة على ستة ...انظر لهذه اللافتة فى أخر القاعة، أستطيع أن أقرأ المكتوب فيها ....قلت كل هذا الكلام وهولا زال ينظر إلىّ وعلى شفتيه نفس الابتسامة شديدة الهدوء!!

أحسست بالإحراج فقلت: أنا آسفة لهذه الطريقة الفجة للتقديم لنفسى، لكنى فقط أردت أن أكون صريحة معك...

قال بعد أن ضحك طويلًا :

- والله العظيم أنا سعيد جدًا بطريقتك هذه ...فكرتينى بزمان ...

صمت قليلًا ثم قال: أولًا: العيون الخضراء والزرقاء وحتى البنفسجى ....مللنا منها هنا ...أنا أتوق شوقًا الآن للون الأسود والعسلى!!

ثانيًا: ...أريد الآن أن أطمئن مرة أخرى أن مسألة طلاقك من زوجك محسومة لأننى بصراحة شديدة لا أحب أبدًا أن أكون "خراب بيوت"

- لا ...اطمئن ...قرارى لا رجعة فيه، و أعتقد أن زوجى قد يكون الآن قد تزوج بالفعل!!

- هل يمكننى أن أعرف سبب الخلاف؟ فكرة مبسطة طبعًا. أنت فى حل من ذكر التفاصيل ..

- لا يوجد سبب جوهرى واضح ....أنا لا أحبه. ولا أعتقد أنه يحبنى أو أحبنى فى يوم من الأيام ...و هناك شىء أحب أن أضيفه ....ليس لى منه اطفال ...لا يوجد ما يمنعنى من الإنجاب ولا هو أيضًا ....أنا أعطيته خيار البقاء معى أو الحرية وهو لم يعطنى أبدًا هذا

الخيار ...
- وهل أنت تتوقين للإنجاب؟
- نعمبكل تأكيد....طبعًا أنت لديك ما يرضيك من زواجك الأول؟
- أريد دستة أولاد مصريين!!
- دكتور جمال ...سؤال لو سمحت ..أنت رجل قضيت معظم حياتك هنا. لماذا تريد أن تتزوج على الطريقة المصرية التقليدية؟

- ما زلت لا تصدقين ..أنا عندما رأيتك لأول مرة،وكنت متجهة للجامعة قلت لنفسى أريد أن أتزوج من هذه المراة ....سَمه "حب من أول نظرة"، سَمه "حلة ووجدت غطاها" سمه ما شئت، ولكنها الحقيقة ....أنا لا أسعى إلى زواج تقليدى ...عشت عشر سنوات مع زوجتى الإنجليزية ...لم تكن سيئة، ولكن ظروف زواجى منها كانت مختلفة ....طبيب شاب أمامه الكثير ليحققه هنا ....الحلم الأوروبى. تعرفين طبعًا هذه المؤثرات ...ولكن بعد عشر سنوات لم يعد يمكننى الاستمرار فى هذه الحياة، لم أعد أستطيع الحياة بوجهين؛ وجه شرقى ووجه غربى ....هى أيضًا لم تعد تفهم ماذا أريد ....وجدتها - وهى الإنجليزية الأصيلة – تتحول بعد الزواج إلى النموذج المصرى!! البيت، الأولاد، المصاريف ...الترهل ...فى الفكر وفى الجسد أيضًا!! لم أتخيل ذلك؟! والله كنت قد قررت أن أرضى بنصيبى وأكمل حياتى معها على هذا الوضع، وأضع همى فى عملى وفى أولادى، ولكنها هى التى طلبت الانفصال وبصراحة أنا "ما صدقت" و بصراحة أيضًا، أنا أتوق شوقًا أن أتزوج من بنت من بلدىتضحك معى على أفلام عادل إمام، تشاركنى السحور فى رمضان، تستمع معى إلى أم كلثوم ..تصفق معى إذا هز الأهلى شباك الزمالك بهدف قاتل ...ت..

- أفهم ذلك يا دكتور جمال، ولكن هل لى أن أعرف لماذا طلبت زوجتك الانجليزية المندمجة فى الحياة الزوجية التقليدية والبيت والأولاد، لماذا طلبت الانفصال؟

- لك كل الحق أن تسألى هذا السؤال وسأصدقك القول ...السبب فى هذا هو أنا...رد فعل طبيعى لعزوفها عن الحياة أن بدأت أنا فى الانطلاق بدونها ...رحلات، هوايات جديدة، اندماج مع الأصدقاء، يمكنك أن تسألى الزوجين مايكل وجلوريا: كم مرة ذهبت معهما إلى اسكوتلندا وويلز و كانت ترفض أن تأتى معنا. كم مرة دعوتها لزيارة مصر ...الأقصر وأسوان ...شرم الشيخ ورفضت ...إذا أردت أن نقلد فيلم "نصف ساعة زواج" فتلتقى بها كما كما التقت ماجدة الخطيب مع شادية... لتعرفى منها أى تفاصيل فلا مانع ....ها ها ...ربما أيضًا تعرفين منها شىء أنا لا أعرفه ...

قلت ضاحكة: ممكن أن نقلد الفيلم فيما بعد، ولكن يا دكتور جمال أنت اخترت الطريق السهل، اندمجت مع أصدقائك وهواياتك، ولكنك لم تحاول أن تعرف موطن العلة لم تحاول أن تتحدث معها.... لم تحاول أن تحاول!!!

- لا لا تظلمينى، أنا طبيب ...حاولت... حاولت كثيرًا، ولكن يجب أن تعرفى أن أحيانًانفسية امرأة تغلق تمامًا تجاه رجل معين وأكبر دليل على ذلك ما حدث معك أنت شخصيًا. أعتقد أن "ليز" قد أصيبت باكتئاب أو لنقل زهد فى الحياة ولم تجد فىّ الشخص الذى يخرجها من هذه الحالة... والله اعلم ...

كانت الأمسية رائعة والحديث شيق وجذاب وكان جمال فى غاية الرقة والعذوبة ...وللأسف جعلنى هذا أندم على الأيام التى راحت من عمرى هباءً ....قد يكون هذا تمثيلًا أو قناعًا يرتديه

جمال ليستحوذ على إعجابى كما يفعل الكثير من الرجال ...نعم.. وليس كل الرجال ....محمود مثلًا والحق يقال لم يضع أبدًا أى قناع ...كان واضحًا جدًا!! عملى إلى درجة أنه يصدم من يتعامل معه، أنا التى كنت عمياء أو بالأصح ...عقدة حاتم جعلتنىأتغاضى؛ خشية أن يفوتنى القطار!!

اتفقنا على لقاء آخر ...تعمدت أن يكون بعد أن تصل باربرا وتطلعنى على الأسرار ...

وصل ياسر ....ازداد وسامة وحضورًا وجاذبية ...هل هذا من تاثير التغيير والوظيفة الأفضل أم لأنه عاد قريبًا منى؟لست أدرى .

استطاعت فاتيما أن تجد له مسكنا لا بأس به ...رخيص وقريب من السوبر ماركت ...

بعد يومين من بدء العمل طلب أن يقابلنى. استدرجته إلى خارج الاستوديو بالطبع. تقابلنا فى كافيتريا قريبة من مسكنه ....لم يكن اللقاء ممتعًا ...كان يحاول الاقتراب وكنت حريصة على التباعد...كان لسان حاله يقول: ها أنذا تركت لندن وجئت إلى هنا ورائك وبمساعدة منك.

فلنبدأ إذن ونقترب من جديد... و كنت أحاول من خلال الكلمة والنظرة أن أوضح له أن دينا الصواف مختلفة عن فردوس الوراق، ولكنى كنت حريصة أيضًا على ألا أجرح مشاعره وأن أعطى له ضوءًا بسيطًا جدًا من الأمل يساعده على الاحتفاظ بروح معنوية عالية إلى أن أجدحلًا لهذه الورطة!!

انتهى اللقاء على وعد بتكراره إذا سنحت الظروف....

عدت مرة أخرى للتفكير فيما يمكن أن تعود به باربرا ...هل ما سترويه سيكون كافيًا لأتخذ القرار ...

مر أسبوع آخر ملىء بالأحداث والأحاديث ....و فى خلفيته صورة باربرا وتخيل لما يمكن أن ترويه لى عند عودتها من هناك والتى أصبحت وشيكة ...

اتصالات شبه يومية من جمال منصور وتعرف على جوانب شيقة جدًا من حياته أوحت لى بأفكار عديدة لروايات أنوى أن أكتبها عندما أتخذ قرارى ...

لم أستطع المقاومة ...دعانى مرة أخرى على العشاء وأيضًا فى السمبسون ...ندمت على اللقاء لأنه جعلنى أتعلق به أكثر وأرجو أن أخوض معه التجربة ...معاشرة رجل مثل جمال قد تعوضنى عن سنوات الجفاف التى عشتها مع محمود!!

فى لقاء العشاء، وبعد أن فتح لى باب السيارة، قال لى مودعًا: قد يكون الإنسان محظوظًا إذا التقى بسيدة جميلة وأنيقة وارتبط بها، ولكنه يكون محظوظًا إلى درجة أنه يجب أن يخاف من الحسد إذا التقى بسيدة بهذه المواصفات وفوق ذلك ذكية وصاحبة فكر ومبادىء ....سأعد الأيام لأعرف ما إذا كان علىّ من الآن أن أتخذ إجراءات الوقاية من الحسد!!!

كلمات كان يمكن أن يختصرها فيقول أننى جميلة وذكية وسيكون سعيدًا إذا ارتبط بى ولكنه قالها بهذه الطريقة لأنه أدرك بذكائه كيف يصل إلى قلبى!!،

صعدت إلى شقتى يومها كمن يصعد فى السماء بأجنحة ملائكية وارتميت على فراشى متمنية أن تدوم اللحظة ....بل لم لا أموت وأنا على هذا الإحساس الرائع؟

التقيت أيضًا بياسر مرة أخرى، لم أستطع أن أميز هل ما زال بالفعل يحبنى أم أنه قد مل من اللعبة التى أمارسها معه: لعبة الاقتراب منه جدًا ثم الابتعاد بسرعة؟ أنا نفسى لا أعرف لماذا أفعل ذلك معه؟ هل هى غريزة طبيعية فى أنثى طبيعية؟ ...هل أحمل له حبًا أنا غير قادرة عليه؟ هل أشتهيه ولا أدرى ماذا أفعل؟

لم لا؟ قد تشتهى امرأة رجلًا مثلما قد يشتهى رجل امراة ...مجرد اشتهاء لا يصل لدرجة الحب ..لماذا يصر بعض الكتاب على أن المرأة إذا اشتهت أحبت وإذا أحبت اشتهت؟لماذا يتقبل الناسفكرة أن يقيم الرجل علاقة سرير مع امرأة وهو لا يحبها وينكرون ذلك على المرأة؟ هل تجاوزت حدودى ...

تمنيت فى آخر لقاء لى معه أن يحدث شىء ما؛ شىء أستطيع تخيله والتنبؤ به، شىء يمكنه أن يسحبنى من حياته ويسحبه من حياتى ...

استمرت علاقتى المتميزة بطلبتى واستمر تواصلهم معى بأكثر مما تحتمله علاقة أستاذ بتلاميذه، وهذا بعد أن تجرأت أكثر و بدأت أسرد لهم مقاطع شديدة الخصوصية من تجربتى الشخصية.. مقاطع تتعلق بالأحاسيس والمشاعر والآمال والطموحات ...لم يعد أى منهم يحضر الدرس من أجل الحصول على درجة أو الانتهاء من عدد ساعات دراسية محدد. كانوا يحضرون من أجل المتعة أولًا، والاستفادة ثانيًا. وهذا ما صنفته أنا على انه "نجاح كبير".

تصلت بى العنود سالتنى عن رأيى فى غلاف الرواية وفى تعليق دكتور صلاح عبد

العظيم ...خشيت أن يحدث لى مثلما حدث يوم وصلتنى الرواية بالبريد ...اكتفيت بأن قلت:

حاجة عظيمة!!

قالت لى أنها ستقيم قريبًا – وبناء على طلب المقربين منها – حفلًا كبيرًا فى لندن بمناسبة صدور الرواية، وأننى بالطبع سأكون أول المدعوين ...كدت أن أتقيأ ...

لم أعد إلى طبيعتى بعد المكالمة إلا بعد أن اتصل بى جمال وأسمعنى كلامًا عذبًا نقيًا جعلنى أقارن رغمًا عنى بينه وبين أخر حوار دار بينى وبين محمود فى لندن منذ أكثر قليلًا من ستة أشهر ...

- بذمتك يا محمود ...ألم تكن فكرة رائعة وعبقرية أن نلتقى هنا فى منتصف الطريق، شىء يبدد الملل و يكسر شوكة غيابنا عن بعض؟

- نعم نعم ...ولكن لمَ تسبق حركتك تفكيرك دائما؟ كان يمكننا أن نصبرقليلًا حتى نلتقى فى القاهرة بعد انتهاء عقدك ....

فهمت ما يرمى إليه ....المادة طبعًا ...فقلت:

- و لكن يا حبيبى أنا لم أدفع مليمًا واحدًا، أنا جئت لحضور المؤتمر وعلى حساب الجامعة.

- ولكنك تكفلت بتذكرتى من القاهرة وإقامتى ...مبلغ كبير كان يمكننا الاستفادة منه فيما هو أنفع ...

- وهل هناك ما هو أنفع من أن نلتقى بعد غياب ونخفف من وطأة ابتعادنا؟هل تندم على لحظات جميلة قضيناها معا هنا؟ ثم لا تنسى أنك قد انتهزت الفرصة وأنجزت بعض الأعمال.

- مشكلتك يا "دوسة " أنك لا تنسين أبد أنك "مشروع روائية " ...أحيانًا تكونين فى قمة

الرومانسية وأحيانًا فى قمة العملية ....تتغربين فى أمريكا من أجل المال و تنفقينه فى سبيل أن نلتقى فى منتصف المسافة!!

- أعطانا الله المال ولم نرزق بالأطفال بعد فلم لا نستمتع ...كنت أتصور أنك على الأقل ستجاملنى وتقول لى- ولو كذبًا - أنك سعدت بهذه الرحلة ..

- يا ستى والله سعيد جدًا، ولكن الأمور لا تؤخذ هكذا ...

قفزت مباشرة إلى قضية كانت دائمًا شغلى الشاغل، قلت له:

- محمود ...مرة أخرى أقولها لك ....إذا كنت متزوجًا من أخرى فأرجوك أخبرنى وسنحل الموضوع سويًا ....كونك لا تسعى للقائى وتعتبره ترفًا لا لزوم له يؤكد أنك على الاقل مستغنٍ عن وجودى ..

- آآآآه..... قضيتك المفضلة، ألم أقل لك أنك لا تنسين أبدًا أنك مشروع روائية؟

مرة أخرى يكرر"مشروع روائية " هل يتعمد غيظى؟

انتهى حوارنا إلى لا شىء ...مثل كل مرة، إحساس قوى أنه لا يرغب فىّ كأنثى وأنه على الأقل وبسبب الإنجاب قد يكون متزوجًا بأخرى ونفى مستمر من جانبه مع عدم طرح أى خيار علىّ فيما يتعلق باستمرارى معه، ولو على سبيل المجاملة أو الظهور بمظهر الرجل الشهم!!

كان هذا أخر حوار لى مع محمود قبل "وفاتى" إذا استبعدنا طبعًا الكلمات المقتضبة التى تبادلناها بالموبايل قبل أن أدخل مطار نيويورك ...

يظهر فى حياتى إذن بعد هذا الحوار ياسر بلمساته الحانية وكلماته المتلعثمة الرقيقة ونظرته البريئة ...و بعده يظهر جمال بعباراته القوية الجميلة وثقته الواضحة بنفسه وتعبيراته الأنيقة واحترامه الشديد للأنثى كشريكة وحبيبة وصديقة وعقل موازى ...

يظهر إذن ياسر وجمال لاكتشف بنفسى أى أكذوبة كنت أعيش فيها ...أكذوبة أننى زوجة لرجل حاولت أن أحبه وأن أجعله يحبنى – وأننى أعيش حياة زوجية ليست بالضرورة سعيدة ، ولكنها على الأقل مستقرة والحقيقة أن هذا كان فقط الجزء الظاهر من جبل الجليد!!

مر الأسبوع على أى حال وصرت مستعدة للقاء باربرا ...

جاء صوتها من لندن عاديًا لا تبدو فيه نبرة حزن أو فرح أودهشة. صوت باربرا فى حالتها العادية ..لم أشأ أن أفتح أى موضوعات. فقط علمت منها بموعد وصول القطار إلى برمنجهام. لم أستطع النوم فى هذه الليلة إلا بجرعة مضاعفة من الكالميبام مع أننى كنت طوال اليوم مع جمال والزوجين خارج برمنجهام فى نزهة فى ويلز. عدنا فى التاسعة مساءً وتخيلت أننى سأنام بعمق بمجرد أن ألمس السرير وبعد حمامى الدافىء، ولكن سيناريوهاتى وتوقعاتى لما ستأتى به باربرا حولت عقلى إلى ورشة كبيرة تطن فيها آلات عملاقة ....بالكاد استطاع الكالميبام أن يجعلنى أظفر بسويعات قليلة من النوم المضطرب الملىء بالخيالات والأطياف كالمعتاد ...

فى الموعد وقفت على الرصيف أنتظر وصول قطار بداخله صندوق أسود يحتوى على تفاصيل وأسرار ثلاثة شهور من حياة عائلة نكبت بوفاتى فى حادثةطيران اهتزت لها مصر!

وصلت باربرا مرتدية ملابسها الكاجوال المعتادة، ولكنى لمحت بالطبع من تحت الجاكت تى شرت أبيض مكتوب عليه بالإنجليزية "أحب مصر" كانت على وجه باربرا ابتسامة لم أفهمها ...رحبت بها وعبرت عن شدة اشتياقى و كذلك فعلت. وبمجرد أن ركبنا التاكسى قالت : سأخبرك بكل شىء بالتفصيل بمجرد أن آخذ حمامى وأغير ملابسى وأمسك فى يد بـ "ماج" النسكافيه،وفى اليد الأخرى بسيجارة ....كدت أن أصفعها على وجهها!! تمالكت نفسى طوال الطريق وفى الاستوديو وبعد أن بدأت بالفعل فى ارتشاف النسكافيه ونفثت دخان سيجارتها بدأت فى الكلام:

- وصلت القاهرة مساءً، لم أفعل أى شىء سوى أن تفقدت غرفتى الفاخرة وقلبت فى محطات التليفزيون حتى أتى النوم، وفى صباح اليوم التالى لم أبدأ فى البرنامج السياحى الرائع إلا بعد أن اتصلت بمحمود و ذكرته بنفسى وطلبت أن أقابله ...

هممت أن أقاطعها فقالت: أعلم أنك تريدين التفاصيل وسأفعل ....تردد محمود قبل أن يوافق على طلبى ...تفاهمنا سويًا بلغة هى مزيج من عربيتى الركيكة وإنجليزيته المتناهية البساطة. بصعوبة استطعت أن أصل إلى عنوان مكتبه. توقعت أن يوفر على المشوار ويأتى هو إلى الفندق، ولكنه لم يفعل ....قابلنى فى مكتبه بتحفظ لم أفهم سببه ..بدأت أنا بالكلام فقلت: إننى كما تعلم، كنت صديقة فردوس الحميمة وإننى قد فجعت بوفاتها وعندما سنحت لى الفرصة القدوم إلى القاهرة كان لابد لى أن أقابل من أحبتهم وعرفتهم ...كان لا بد لى أن أزور قبرها وأضع عليه وردة بلدى حمراء،وهو نوع الورد الذى كانت تفضله ...وها أنذا أقابلك...ثم..

قاطعنى قائلا: متى كانت أخر مرة قابلت فيها فردوس؟ فأجبته بأننى كنت من أوصلك للمطار وأننى لم أنصرف إلا بعد أن تأكدت من أنك حصلت على بطاقة الصعود للطائرة

وأنك فى طريقك للجوازات ...قال:

- أشكرك على وفائك لفردوس، ولكن الحقيقة هى أنه ليس لديها قبر! باختصار لأننا لم نجد لها جثة أو حتى جزء من أصبع أو حتى شعرة واحدة منها. حتى جواز سفرها لم نعثر عليه و قد سافرت أنا بنفسى إلى أمريكا،ولم أعثر على شىء ينتمى اليها ...أقمنا لها فى القاهرة عزاءً كبيرً ونشرنا لها نعيًا فى الأهرام، ولكنى أكرر ليس لها قبر تزورينه ...ربما سنقيم لها قبرًا رمزيًا فيما بعد ...احترت فى أمرى ..كيف أطيل الحديث معه بعد أن ذكر موضوع القبر. ...كيف يمكننى أن أجعله يجيب على التساؤلات التى تشغل تفكيرك خاصة، وأنه متحفظ جدًا معى ...قررت أن أواجه ....سأسأله مباشرة وليحدث ما يحدث ..

- وأنت كيف حالك؟ هل تجاوزت الأزمة؟ قال: يمكن للإنسان أن ينسى أى شىء – هذه سنة الحياة – ولكن ما شغلنى فعلًا عن أحزانى هو الحادث نفسه؛ فأنت بلا شك تعرفين أنه أثار جدلًا واسعًا و حتى مسالة التعويضات لم تحسم بعد ...هناك تفرقة فى التعويضات بين الجنسيات المختلفة ...واتهامات متبادلة بين كافة الجهات ...ولكن على أى حال الأيام تمضى!

قلت: وماذا عن والدها؟ وشقيقتها؟ والتوأم؟ قال: والدها وإحسان أراهما بانتظام وقد تجاوزا مرحلة الحزن الشديد ويندمجان الآن فى الحياة.. قلت: هل يمكننى أن أقابل والدها؟ تردد طويلًا قبل أن يجيب: ولكنك لن تستطيعى أن تتواصلى معه هو لا يعرف كلمة إنجليزية واحدة ..

- سأحاول ....أرجوك، دعنى أقابله ..

- سأسعى إلى ذلك على أن يكون ذلك فى وجود إحسان، لعلها تكون همزة الوصل.

انتهى لقائى معه واتفقنا أن يتصل بى لإخبارى بالموعد مع إحسان ووالدك...طلبت منه صراحة أن يوصلنى إلى هناك لأننى بالكاد استطعت أن أصل إلى مكتبه ،،،

مر يومان ولم يتصل ....خفت أن يسرقنى الوقت فاتصلت أنا ...تحجج بمشاغله إلا أنه اتفق معى أن يمر علىّ فى الفندق باكر فى السابعة مساءً، علمًا بأن موعد سفرى إلى الأقصر كان صباح اليوم التالى ....ركبت معه السيارة التى راحت تجوب شوارع القاهرة ....لم يتكلم كثيرًا فقط كلمات بسيطة تصف ما نرى ...هذا ميدان التحرير ..هذا كوبرى أكتوبر وهكذا ...

وصلنا منزل والدك، فتحت لنا زوجته عرفنى عليها محمود...كانت تومىء برأسها من حين لأخر عندما كان يترجم لها ما أقوله عنك ....أستطيع أن أقول أننى لمحت دمعة فى عينها قبل أن تنسحب إلى غرفتها ولا أراها بعد ذلك ...وصل والدك ..كان يرتدى جلابية بيضاء ويضع طاقية على رأسه. رحب بى جيدًا وصافح يدى، ولكنه لم يبتسم أبدًا. أخبرته – عن طريق محمود – أنك قد حدثتينى عنه كثيرًا و أننى كنت معك عندما اشتريت له حذاءًا مريحًا كان قد طلبه منك ...أحسست أنه على وشك البكاء فاعتذرت عن كلامى، ولكن محمود ترجم لى عنه أنه يريدنى أن أستمر فى الكلام لأن هذا يسعده ...

أخيرًا وصلت إحسان ....هى تمامًا كما وصفتها لى، وبالرغم من امتلاء جسدها إلا أنه من الواضح جدًا أنها تتمتع بجمال من نوع خاص وأحب أن أخبرك أنها حامل!! وفى شهرها السابع ...كان محمود قد مهد لها الأمر ...تكلمت معى بإنجليزية تشبه إنجليزية زوجك الذى استأذن ليستغل الوقت فى زيارة والده فى منزله القريب من منزلكم ...

أخبرت إحسان أننى أعرف القليل من العربية العامية المصرية ..تعلمته على يديك. ابتسمت وقالت: أنها تفتقدك بشدة وأنها حتى الآن تظن أن هذا كابوس لابد ستفيق منه!!!! تطرقت مباشرة إلى موضوع محمود فقلت: كانت فردوس دائمًا مشغولة بفكرة أن يكون محمود متزوجًا من غيرها؟ فاجأتنى بإجابتها، قالت: أن أمر محمود كله محير وأنها لا تستبعد أن يكون متزوجًا، ربما فى السعودية وربما فى إحدى المدن الساحلية وأردفت أنه يقوم بجهد خارق ومعه العديد من المحامين من أجل الحصول على تعويض من شركة الطيران بالرغم أن الشواهد تدل على صعوبة هذا الأمر لعدم وجود ما يثبت وفاتك وبسبب ملابسات الحادث ، ولكنه لا يتوانى أبدًا عن السعى ويؤكد لهم يوميًا: أن حق فردوس لن يضيع وأنه سيتم توزيع مبلغ التعويض كميراث شرعى على كل الورثة ....ودعت إحسان ...والغريب أنها طلبت منى عنوانى فى أمريكا وعنوان بريدى الإلكترونى أيضًا وقالت أنه يسعدها أن نتراسل ...وقالت لى فى جملة هى مزيج من العربية والإنجليزية أنها تعتقد أن قريبًا ستظهر مفاجأت فيما يخص محمود وأنها ستطلعنى عليها، لأنها بحاجة إلى ذلك بعد أن فقدت الصديقة والشقيقة!! مرة أخرى ركبت سيارة محمود بعد أن انتهى من زيارة والده....أعتقد الآن أنك ستتهمينى بالغباء الشديد ...ولكن لا بأس، فربما وظفت الأقدار هذا الغباء لتفتح أعيننا على حقيقة غريبة هى مفاجأة من العيار الثقيل ...

- باربرا ....أخشى أن يحدث لى مثلما حدث يوم وصول الرواية ....ترفقى بى.. لا تخبرينى بالحقيقة دفعة واحدة ...لم أعد أتحمل المزيد من المفاجأت...

لم تعلق باربرا واستطردت بهدوء شديد :

- سألنى محمود عن رحلتى من نيويورك إلى القاهرة بدون تفكير وجدت نفسى أقول له: أن رحلتى كانت من لندن وقبلها برمنجهام!! لست أدرى ما الذى جعلنى أذكر هذه التفصيلة؟ ولكى أصلح الخطأ قلت ...نعم أنا كنت فى برمنجهام لحضور محاضرات تخص رسالتى للماجستير ...فوجئت بمحمود يضغط على الفرامل فجاة ويتوقف على جانب الطريق ثم ينظر إلىّ والشرر يتطاير من عينيه ويقول:

- إذن لقد أرسلتك فردوس لتطمئن على سير لعبتها ...

قلت بارتباك: أنا لا أفهم عم تتكلم، كيف ترسلنى فردوس.. تقصد قبل أن تموت؟ أحسست أنه يريد التراجع عما قاله، ولكنى كررت سؤالى: ماذا تقصد بما قلت؟

أطلق زفيرا طويلًا و قال: لقد انتهت اللعبة ...أنا أعلم أن فردوس حية!!الصدفة وحدها هى التى قادتنى للحقيقة ...أعطتنى ذات يوم عنوان بريدها الإلكترونى وكلمة المرور لأبحث فيه عن رسالة وصلتها من إحدى الجامعات؛ لأن الكمبيوتر الخاص بها كان معطلًا ...كتبته أنا فى ورقة صغيرة وبعد وفاتها المزعومة بشهرين وجدت هذه الورقة فى درج مكتبى فكرت أن أدخل إلى بريدها...أحسست أننى لوفعلت سأستعيد أحزانى من جديد، ولكنى وجدت نفسى لا أستطيع المقاومة ...دخلت وكانت المفاجأة الكبرى ...وجدت رسائل مرسلة منها ورسائل وصلتها بعد ٣١ أكتوبر ١٩٩٩ منها رسالة من جامعة برمنجهام تفيد قبول مجيئها لإلقاء محاضرات و رد منها يفيد بأنها ستحضر فى التاريخ الفلانى ...جن جنونى ولم أصدق ما أرى. كان لابد لى أن أتاكد...كان ظنى أن تكون واحدة قد انتحلت شخصيتها على الأقل

افتراضيًا ...ثلاثة أيام لم أستطع النوم، ولم أصرح لأحد بما عرفت. لم يكن بإمكانى السفر لأسباب تتعلق بالعمل عثرت على صديق يقيم بمانشستر رجوته أن يسافر إلى برمنجهام ويسأل فى الجامعة عن الدكتورة فردوس الوراق ....تمكن من العثور عليها وتتبعها. طلبت منه أن يصفها. فعل ولكن كان هناك شك فى الصورة التى وصفها. طلبت منه أن يلتقط لها – بحرص شديد – صورة فوتوغرافية. فعل و أرسلها لى ....لا يمكننى أن أخطىء فى التعرف على فردوس حتى لوكان شعرها قصيرًا وعيناها خضراوان!!

صمت محمود طويلًا فطلبت منه أن يكمل، تردد طويلا ثم قال:

- ماذا تريدين أن تسمعى أكثر من ذلك؟ لم يحدث شىء ...لماذا لم تدهشى عندما عرفت أن صديقتك حية؟

- لأنى لا أصدق هذا ...لماذا لم تتصل بها؟ لماذا لم تسافر إليها إذا كنت تظن أنها حية؟

تردد محمود أكثر وطالت فترة صمته ثم قال: لأننى لا أفهم ما الذى يجرى؟ لماذا فعلت ذلك؟ تصورت أن تكون قد فقدت الذاكرة لأى سبب من الأسباب ..ولكن كيف لمن فقد ذاكرته أن يتذكر بريده الالكترونى ويقدم على وظيفة فى تخصصه الدقيق ويتواصل مع جامعة كبيرة بل ويدرس لطلبتها ....هل فعلت ذلك لتهرب منى؟ وهل هذه وسيلة طبيعية للتخلص من زواج فاشل إذا كان هذا رأيها؟ كان يمكنها أن تصارحنى بما تريد ونحل مشاكلنا ...هل فقدت عقلها؟ كنت أقول دائمًا لنفسى أن هناك فارق بسيط بين العبقرية والجنون ....فردوس عبقرية بلا شك، قدراتها الذهنية أكبر من قدرات البشر التقليديين ....فهل فقدت عقلها وأنت

بهذا التصرف الغريب؟ كنت أقول لها دائمًا أنها غريبة الأطوار وكانت تأخذ هذا على سبيل المزاح، ولكن الحقيقة أنها غريبة الأطوار ...انظرى إلى رواياتها ...أو بالأصح إلى بطلات رواياتها ...ليس فيهن واحدة طبيعية وهذا ماكان يجعل دور النشر تتردد فى نشر رواياتها.

مثال آخر ...هى تعلم تمامًا أنها غير قادرة على الإنجاب، صارحنا الطبيب ومع ذلك تصر على أن العيب ليس فيها أو فىّ وإنما فى اجتماعنا سويًا. فهل فعلت ذلك لتجرب حظها مع رجل آخر؟ أعتقد أن هذا هو الجنون بعينه!!

كيف تريدين منى أن اتصل بها؟ كيف؟ إنسانة تركتنى أتألم لوفاتها وكاد والدها أن يفقد حياته كمدًا وحزنًا عليها ..وهى حية ترزق وتستمتع بحياتها، تقص شعرها وتضع عدسات ملونة ....أعرف أن سر اللعبة كله معك،زلة لسانك و بالصدفة البحتة فضحت كل شىء ولكنك لن تتكلمى...عبقرية فردوس بلا شك وتعرف كيف تستخدم أدواتها ومن يساعدها ....على العموم أخبريها عندما تعودى أن تستمر فى لعبتها لبعض الوقت حتى نمهد لأبيها فلا أظنه سيتحمل نبأ عودتها للحياة ....وأنا بأنتظار أن تفسر لى ما حدث ...

لم أدرِ بم أجيبه ...لا أريد أن أنفى أو أؤكد لأنى لا أعرف موقفك بعد. قلت له مودعة:

- مستر محمود أنا لا أفهم أى شىء مما سمعت ....سأحاول أن أتاكد مما عرفته منك فى التو وسنكون على اتصال ...أشكرك .

صمتت باربرا وطال صمتها فسألتها وأنا شبه غائبة عن الوعى:

- ثم ماذا؟
- لا شىء ...أكملت رحلتى ولم أتصل بك بناء على تعليماتك. كنت فى حالة غريبة من

الحيرة.. أخبرك بما حدث لتأخذى حذرك أو أسكت لتسير الأمور فى مجراها الطبيعى بعد ما صرح به محمود....

انتهى كلام باربرا ...

و تمامًا مثل ما حدث يوم وصول الرواية ...دق قلبى بعنف وفقدت نبضاته انتظامها. جريت إلى الحمام و أفرغت ما فى جوفى، ويبدو أن باربرا تعلمت من المرة السابقة؛ هرعت إلى المطبخ و أتت بحفنة من الملح ثم عصرت الليمون ...

على سريرى دارت الدنيا من حولى و باربرا بجانبى تدلك يدى تارة وتساعدنى على ارتشاف الليمون تارة أخرى ...

إذن لقد صدق المثل الفرنسى "غير المتوقع يحدث دائما"! تخيلت كل السيناريوهات لختام لعبتى إلا ما حدث!! تصورت أن يرانى أحد ممن يعرفوننى ويتناثر الخبر فأعود للقاهرة، وأخترع أى كذبة لأبرر غيابى خلال هذه الفترة ...تصورت أن تراسل جامعة برمنجهام جامعتى فى القاهرة لأى سبب من الأسباب فينكشف الأمر ...تخيلت أن استمر فى اللعبة إلى ما لا نهاية وينهيها الله كما بدأها ....تخيلت وتخيلت وتخيلت ....إلا ما حدث ....

هذا الخطأ البسيط الكبير الذى كشف اللعبة!! ظننت أننى الوحيدة القادرة على دخول بريدى الإلكترونى ....نسيت تمامًا أننى ذات يوم لجأت إلى محمود ليتفقد بريدى!! نسيت أن أغير كلمة السر بعد هذه الواقعة، ولكن المسألة ليست فقط فى هذا الخطأ ...إنه حظ محمود.. محمود ذاكرته ضعيفة أو عادية ولولا أنه وجد الورقة أمامه لما استطاع الوصول لبريدى!!

لم تنكشف اللعبة إذن لأنهم اكتشفوا أن السيدة العجوز تحمل بطاقة غيربطاقتها كما توقعت...لم

تنكشف اللعبة لأن جهات التحقيق راجعت السجلات فوجدت أننى لم أمر على الجوازات ولم أذهب لبوابة الخروج، وبالتالى فأنا لم أركب الطائرة ولم أغادر أمريكا فى هذا اليوم كما تصورت ....انكشفت اللعبة من سهوى أنا!! كان يمكننى أن أنشىء بريد إلكترونى جديد أرسل منه زيادة فى الاحتياط ...، ولكنى لم أفعل!!

إذن فالله أرسل إلىّ من يسرق موبايلى لينقذنى من الموت وتبدأ اللعبة.والله أيضًا أوجد الورقة الصغيرة أمام بصر محمود لتنتهى اللعبة!!

قبلتنى باربرا فى جبينى وقالت: هل أنت الآن فى حالة جيدة تسمح بأن نتحدث؟

أومأت بالإيجاب ...

- ماذا تنوين أن تفعلى؟

- ليس المهم ما سوف أفعله ولا يهمنى أن يعرف محمود الحقيقة – كان سيعرفها يوم ما – ما يفزعنى هو رد فعله ...ليخبرنى أحد من فضلكم ...هل من الطبيعى أن يعرف رجل ما أن زوجتة الميتة ليست ميتة ولا يتحرك؟ مهما كانت هذه الزوجة ومهما كانت غرابة أطوارها؟ ألا يركب أول طائرة إلى لندن ليسأل عنها ويعرف ماذا حدث؟ دعنا من هذا ...ألا يرسل لها إيميل واحد حتى ليوبخها ويسفه من تصرفها ...أنت يا باربرا أرسلت إلى إيميل وأنت تعرفين أننى ميتة!! حتى لو شك فى الأمر وشك فى أننى أهرب منه؛ ألا يدعوه ذلك – ولو من باب الفضول - أن يعرف السبب؟

ثم بالله عليك أين الحقيقة فيما قاله ...أخبرك أننى غريبة الأطوار وأننى عاقر بشهادة الطبيب وأن دور النشر لا تنشر رواياتى لأنها غريبة وبطلاتها غريبات الأطوار مثلى ....

أين الحقيقة ياربى ....هل أنا عاقر؟ هل أتخيل أشياء ...بالله عليك يا باربرا افتحى بنفسك هذا الدولاب وانظرى فى الدوسيه الأخضر الكبير، سترين بنفسك وباللغة الإنجليزيةتقرير الطبيب الذى يثبت أن جميع التحليلات والأشعات الخاصة بى سليمة ....هل هذا وهم؟ أنا غريبة الأطوار!! لماذا؟ قد أكون غريبة الأطوار بالفعل لأننى قمت بهذه اللعبة وإن كان لى مبرراتى القوية ...ولكن ماذا فعلت معه قبل ذلك ليتهمنى بالجنون؟ هل أنا مجنونة لأننى حاولت أن أنقذ زواجنا فالتقينا هنا فى منتصف الطريق ....هل أنا مجنونة لأننى كنت أعمل فى القاهرة بكل طاقتى لأثبت وجودى فى مجتمع يحترم الإنسان لأصله وفصله وماله لا لعمله وقيمته؟ هل أنا مجنونة لأننى تجرأت يومًا وعارضت رئيس قسم بالكلية لأنه يضطهد واحدًا من زملائى المعيدين بسبب اتجاهه الدينى؟ أخبرينى يا باربرا بالله عليك ..هل أنا مجنونة ....ليس هذا وقت مجاملات. إن كنت مجنونة أخبرينى ..على الأقل لأبدأ العلاج ...دور النشر ترفض طبع رواياتى لأنها غريبة وبطلاتى غريبات الأطوار مثلى ...هل هذه هى الحقيقة ...قد تكون هذه هى بعض الحقيقة؛ ما أكتبه قد لا يعجب الكثيرون، ولكن هل أنا فاشلة إلى هذه الدرجة؟ لماذا اشترت العنود إذن روايتى بنصف مليون جنيه؟ لماذا رشحها لها سلمان؟ لماذا كتب دكتور صلاح عبد العظيم ما كتب؟ أين الحقيقة ياربى؟ المسألة الآن احتمال من اثنين ...محمود كذاب أشر ...أوأننى أعيش فى أكذوبة كبيرة صنعها جنونى!! أخبرينى بالحقيقة يا باربرا ...

وقبل أن تجيبنى باربرا ....قلت: يا إلهى ....هل يمكن أن يكون ما جال بخاطرى الآن

صحيحًا؟ باربرا ...بالله عليك ماذا قال لك محمود قبل أن تودعيه ....ماذا طلب منك أن تبلغيه

إلىّ؟
- ماذا؟ آه ....قال أن تستمرى فى اللعبة قليلًا حتى يمهد لوالدك ...
- يا نهار أسود ...هل يمكن أن يكون هذا صحيحًا؟
- ماذا؟
- التعويض؟؟؟!!!!

قال لى الطبيب الذى كلفه جمال بمتابعة حالتى وهو يقف بجانب سريرى فى المستشفى:

- دكتور وراق ... نتائج فحوصاتك كلها سليمة وأنت تتمتعين بصحة ممتازة، ولكن يبدو أنك قد كلفت نفسك فوق طاقتها فى الأيام القليلة الماضية أوربما تكونين قد تعرضت لضغط عصبى كبير. ستخرجين من المستشفى اليوم، ولكن أرجو أن تستريحى قليلًا فى المنزل بعد ذلك.

وصل جمال فى تلك اللحظة مرتديًا المعطف الأبيض الذى أضاف رونقًا إلى رونقه وأضاف

إلى قلبى أكثر من مجرد إعجاب به ...

قال جمال: أفزعتينا يا فردوس ....الحمد لله الآن دكتور براون طمأننى.

انصرف براون وتركنى مع جمال ....فوجئت به يمسك بذراعى ويعد نبضى ...قلت له: هل

أنت تعد نبضى بجد أم أنها فرصة لتمسك بذراعى؟

- إنها فرصة لأمسك بذراعك طبعًا!!

غرقنا فى ضحك من القلب ...

كانت باربرا بعد أن وجدت أن حالتى قد ساءت للغاية وتكرر القىء.... قد استأذنتنى

أن تستدعى جمال ...وجدت رقمه بالطبع على الموبايل ...حضر بعد دقائق معدودة ..

تعجبت عندما وجدت نفسى أسأل باربرا قبل أن يصل جمال:

- هل شكلى الآن مقبول أم ستكون هذه هى أخر مرة أرى فيها الجراح الوسيم!!

ركبنا مع جمال فى سيارته، وفى المستشفى- وبتوصية منه - وعلى حساب تأمينى الصحى تم إدخالى غرفة رعاية خاصة بعد أن وجدوا ضربات قلبى أسرع من اللازم ..

أعطونى بعض المهدئات والمحاليل ...نمت نومًا عميقًا بلا أحلام ولا أطياف ولاخيالات ...أفقت منه لأرى باربرا و فاتيما بجانبى ...

كان اليوم التالى ولحسن الحظ عطلة. لذا استسلمت لهاجس الراحة الذى لا يريحنى أبدً، ولكنى كنت مضطرة؛ لأن المهدئات والأدوية جعلتنى فى حالة وهن واضحة ...إلا أن عقلى ظل متيقظًا ....رحت أفند كل ما قالته باربرا وأستعرض المعطيات الحالية بعد الأحداث الجديدة ومن خلال محاوراتى مع باربرا- وكأننى أفكر بصوت عالى - خلصت إلى نتيجة أرضتنى:

أنا لست نادمة مطلقًا على التجربة المجنونة التى قمت بها وليقل عنى محمود ما يشاء ...مجنونة، غريبة الاطوار ...أنانية ...أرسل إلىّ الله من يسرق موبايلى فنجوت من الموت ونجوت أيضًا من حياة سخيفة لا معنى لها مع إنسان حاولت معه كثيرًا وضحيت معه كثيرًا ...نجوت من حياة لم أستطع- برغم المحاولة- أن أتأقلم وأعيش فيها مع أشخاص أعتقد أنهم قد أساءوا إلىّ عمدًا أو إهمالًا ...عشت التجربة وجعلتنى أدرك أنّ فى الحياة أشياء كثيرة جميلة وناس أجمل ....رجل مهذب ناضج جميل. حتى لو افترضنا أنه يضع قناعًا مثل معظم الناس إلا أنه على الأقل يتحرى الجمال فيما يفعل أو يقول ....شاب مكافح شريف و نقى، ملىء بالرجولة والوسامة والجاذبية، لم يحاولولو للحظة أن يستغل وضعًا أو ينفذ من ثغرة

طلاب يفهمون ويتناقشون ينتقدون ولا يجرحون ...الحياة فيها باربرا وفيها فاتيما ...نعم.. لم ولن أندم على هذه التجربة ....لنرى السيناريو الآخر.. ماذا لو كنت قد اتصلت بمحمود لأخبره أننى نجوت؛ كنت سأعود إلى القاهرة فيرحب بى محمود ليوم أويومين ثم ينطلق إلى حياته ومشروعاته وبلا شك كان سيسألنى أين وضعت دولارات نيويورك!! أكاد أجزم الآن أنه لم يدخل إلى بريدى الإلكترونى ليستعيد ذكرى الزوجة الراحلة وإنما ليبحث عن مكان الدولارات!!!

كنت سأطالبه أن يمضى قدمًا فى مسألة التلقيح الصناعى أوأطفال الأنابيب وكان سيرد بنفس الرد التقليدى: لا داعى لذلك... سيرزقنا الله ...إنها مسالة وقت ...

كان سيقيم معى علاقة أول يوم وربما الثانى وبعد ذلك كنت سأضطر أن أستخدم خبث الريفيات وشغالات البيوت لأستدرجه إلى يوم ثالث؛ فأنا أعرفه جيدًا يمل منى بعد يومين وربما أقل! كنت سأعود مرة أخرى فريسة لهواجسى بشأن زواجه الثانى أو بشأن أن يكون عقيمًا وزوّر تحليلاته ...كنت سأعود إلى إحسان فتخفى عنى حملها حتى وإن كانت فى السابع ...أما التوام فللأسف لم تخبرنى باربرا عنهما. ربما تكاسل محمود أو تكاسل أبى فلم يبلغهما الخبر من الأساس!!

كنت سأعود إلى أبى وكان سيرحب بى بلا شك، ولكن بعد أقل من أسبوع كان سيسمعنى وصلات عن حياته وعن طباعه ليبرر زواجه بعد فترة قصيرة من وفاة أمى وكان سيطلب منى طلبه المفضل: أن أتبنى وأرعى واحدًا من أطفال إحسان لأنها "غلبانة ومخها على قده"

على حد قوله. كأننى مكتوب علىّ طوال حياتى أن أرعى إحسان وأيضًا أطفالها!! كنت سأعود للقسم فى الكلية وأسمع ليلًا ونهارًا نغمات النفاق والرياء لرئيس القسم وللعميد وكنت – سواء شئت أم أبيت – سأحاط علمًا بكل المؤامرات والدسائس التى تدبرلى بليل لإبعادى عن أى دور مؤثر أووضع مميز استحقه عن جدارة ..ناهيك عما سأسمعه أيضًا ليلًا و نهارًا عن فشلى الرهيب فى أن أنشر رواية واحدة لأن أسلوبى فج وخارج عن النمط وعن القواعد الأدبية المتعارف عليها!!

هل لحياة مثل هذه اتصل بمحمود وأخبره أننى لم أركب الطائرة وأننى ساعود إليه غدًا لنحتفل بنجاتى؟ لقد بصرتنى تجربتى الفريدة بما كنت أعيش فيه من تجاهل واستغلال ...سقطت الطائرة فلفتت انتباهى وأيقظتنى من الغفلة!!

سأعود حتمًا لوالدى ولإحسان وللتوأم فهم قدرى، ولكنى لن أعود أبدًا لحياة لا ترضى إلا بلهاء ...

أنا سيدة منظمة وأرتب لأمورى بالورقة والقلم ...أرتب أفكارى وأستغل وقتى وأنظمه ...كان المتبقى لى من العقد الأول مع جامعة برمنجهام شهر واحد قررت أن أستغله أروع استغلال فكان أول قرار اتخذته بعد خروجى من المستشفى أن أخبرت العميد بأننى أوافق على عقد جديد فى فترة لاحقة ...لن أعمل فى الجامعة فى مصر بعد الآن. سأنتقل من مكان إلى آخر مثل الطير الحر .....سأفعل مثلما تفعل إحسان ...إجازة بدون مرتب قابلة دائمًا للتجديد!!

إذا سألونى فى مصر لماذا لم أتصل بعد أن نجوت من الموت سأقول أى شىء ...فقدت الذاكرة

ولم تعد إلىّ إلا مؤخرًا مثلًا!! هم لن يسألوا على أى حال ...

وبما أننى أحب بريطانيا أكثر من أمريكا سيكون إذن لأوروبا الأفضلية عندى للعمل ...

قابلت جمال أربع مرات فى أسبوع واحد بعد شفائى ...تأكدت أنه جاد كل الجدية فى مسألة

زواجه منى ...لم أهتم كثيرًا بما سماه ضمانات بشأن حريتى إذا تم الزواج بالإضافة إلى

بعض الضمانات المادية ....تعودت أن أعيش من كدى ولست بحاجة لأن ينفق على زوجى

وإن كنت متأكدة من كرم جمال ...أخبرته أننى سأعود للقاهرة بعد نهاية العقد؛ لأطوى الصفحة القديمة وإن كنت أعرف أن هذا ليس بالشىء الهين ...ولكن على العموم، المطمئن فى الأمر أن محمود سكته معروفة ...المال!

وإذا كان بالفعل قد سار طويلًا فى طريق صرف التعويض فهذه ليست مشكلتى، عليه هو

إصلاح الأمر وليتحمل هو أى وزر لأننى سأظهر وبوضوح وباسمى الحقيقى ...

وبما أننى أريد أن أطوى صفحاتى القديمة؛ كان لابد لى أن أطمئن على نجاح خطتى بشأن

ياسر ....بوادر النجاح ظهرت فى نظرة عين فاتيما إليه عندما جاءا لزيارتى فى المستشفى!

أدركت وقتها أن من الطبيعى أن يحدث الحريق إذا اقتربت النار من البنزين،وفاتيما نار

شديدة التأجج وياسر بنزين سريع الاشتعال حتى وإن كان قد هام حبًا ذات يوم بامراة ناضجة

كانت تقشر معه البطاطس ثم اختفت فجأة ومعها نصف مليون جنيه!

سألتنى فاتيما وبكل وضوح إن كان بينى وبين ياسر أى شىء لأنها تشعر بذلك من كلامه عنى.

أجبتها أنا بوضوح أكثر أن ياسر ظهر فى حياتى فى التوقيت الخطأ، ولست أنا التى تسىء

التقدير إلى هذه الدرجة. وأنت يا فاتيما الشخص المناسب جدًا لياسر وأنا أضمنه مائة بالمائة!

قابلت ياسر بعدها وأفهمته بوضوح أنه لولا الفارق الواضح بيننا فى السن لما ترددت فى أن

أطارده وأتزوجه!! و بينت له أن من الواضح أن الامور تسير فى مجريات لم نخطط لها؛

هو جاء إلى برمنجهام ليكون بجانبى فوجد فتاة هى المناسبة له بكل المقاييس وأنا سعيت أن أجد له عملًا هنا لأستأنس بوجوده فوجدت رجلًا رائعًا هو الأنسب لى بجميع المقاييس ... ابتسم وقال: ولكنى لن أنسى أبدًا – مهما عشت – أجمل أيام حياتى ...أيام المطبخ!!

سافرت باربرا وتعاهدنا ألا نتباعد أبدًا مهما حدث ...اتفقنا على أن أزور أمريكا مرتين سنويًا وأن تزور هى القاهرة كلما سمحت لها ظروفها، وأن نلتقى فى العواصم الأوروبية كلما أتيح لنا ذلك ...أوصيتها ألا تتسرع فى قرار زواجها من صديقها وحاولت جاهدة أن أشرح لها معنى المثل المصرى المعروف: قعدة الخزانة ولا جوازة الندامة!!!

لا داعى لأن أسرد تفاصيل المكالمة التليفونية التى دارت بينى وبين إحسان فقد كانت مكالمة كلها صراخ وعويل ثم ضحك هستيرى ...تأنيب، تساؤل ...بكاء، لهفة ...لم أستطع إلا أن أبكى فى النهاية ...طلبت منها وبنفس الصيغة: أن تستعمل عقلها ولو مرة واحدة فى حياتها – تعودت هى منى على هذه العبارة – و تمهد لأبى بالحقيقة تدريجيًا وأن تخبره أننى كنت فى شبه غيبوبة طوال هذه المدة!!!

ليلة السفر كانت مشحونة بالأعمال كالعادة ....وداع جمال فى السمبسون أيضًا، حفلة وداع بسيطة نظمها طلبتى وحضرها العميد. وعدتهم فى نهايتها بالعودة قريبًا ...

اتصلت بالعنود.. ربما لأثبت لنفسى أننى لم تهتز لى شعرة مما حدث وأننى صاحبة الموهبة وأننى لن أصاب بالإحباط ...لقد عرفت الطريق وأعرف كيف سأستطيع أن أنشر رواياتى وحتى لو اضطررت أن أبيع كل ما كتبت – وإن كنت أدرك أننى لن أضطر إلى ذلك – إلا أننى على ثقة أننى أستطيع أن أكتب المزيد والمزيد ....

قصصت شعرى مرة أخرى، ودعمت عدساتى الخضراء بأزواج جديدة من درجات

مختلفةكما اشتريت ملابس جديدة غالية الثمن ومن ماركات شهيرة ..

اتصلت أيضًا بسلمان جابر ...هل لأضمن لنفسى خط رجعة إذا ضاقت بى الأحوال؟

أحيانًا أتصرف و أنا لا أدرى لماذا؟ ..ثم يتضح لى بعد ذلك أنّ تصرفى كان بناءً على خلفية لمتظهر فى الصورة!!! ربما كان محمود على حق فى أننى غريبة الأطوار!!

قامت فاتيما بنفس الدور الذى قامت به باربرا فى نيويورك...أوصلتنى للمطار وانتظرتنى حتى وزنت وحصلت على بطاقة صعود – باسمى – للطائرة.

فى هيثرو لم أقع فى نفس أخطاء مطار جون كينيدى ...أجمل أخطاء حياتى!! لم أحاول أن أغفو وبقيت متيقظة رغم تعبى ....دققت فى بطاقة الصعود لأتأكد أنها تخصنى ...دخلت إلى بوابة الخروج مبكرة مثل بقية خلق الله ....وفى الطائرة التقيت بسيدة إنجليزية ...مسز اليانور عرفتها بنفسى على أننى فردوس الوراق أستاذة الأدب الإنجليزى وروائية محترفة!!

فى غرفتى الفاخرة بفندق هيلتون رمسيس ...أقرب الفنادق من منطقة الشرابية ...مسقط رأسى و محل سكن سائق القطار ومحل بقالة والد محمود... رحت أنظر للقاهرة من الارتفاع الشاهق ...عجيبة جدًا هذه المدينة ...تكفر بها وتلعن أبو زحامها وحرها وترابها، ولكنك لا تلبث أن تشعر بالقشعريرة عندما تصل للمطار وتقف فى طابور الجوازات واستلام الحقائب تمنيت أن أقابل جمال هنا ....تمنيت أن أحب ياسر هنا ...حتى العنود ...تمنيت أن أوقع العقد معها هنا!!

صباح اليوم التالى ارتديت أغلى وأجمل تايير عندى ...تايير بلون النبيذ ...صففت شعرى عند كوافير الفندق....ركبت سيارتى التى استأجرتها بسائقها مع أننى أقود السيارات بمهارة فائقة وكيف لا وأنا ابنة سائق القطار!!

لم أتجه إلى منزل والدى أومنزل إحسان وإنما ذهبت مباشرة إلى مكتب محمود ...طلبت

منى السكرتيرة أن أذكر اسمى وسبب الزيارة –الله يرحم والدك البقال يا محمود!!- نعم فهى لا تعرفنى؛لم أزر محمود فى مكتبه ولو مرة واحدة ....لم يدعُنى أبدًا !!

- قولى له أنا مدام دينا ...من برمنجهام!! هرع محمود إلى الباب بمجرد أن أخبرته السكرتيرة.

دخلت ...أغلق الباب ورائى وفتح ذراعيه ....لم أكترث ...ضمنى إليه.. لم أهرب ولكنى لم أتِ بأى حركةمشجعةكانت أو منفرة ....تركنى.. فجلست على المقعد أمامه ...

كلام كثير قاله ....كنت أرى فمه - وعليه شاربه البغيض- يفتح ويغلق ولكنى لم أسمع أى شىء ...و فى النهاية كلمة واحدة أو بالأصح كلمتين قالهما وسمعتهما ...

- كيف ولماذا؟

لم أتردد فى الإجابة وقلت:

- كيف ولماذا؟ ...هذه قصة طويلة أنت تعرف معظمها ...
- لا أفهم ...
- محمود ....طلقنى.

تمت بحمد الله ...ينبع الصناعية. التاسعة والنصف مساءً. يوم السبت ٢-٦ -٢٠١٢ الموافق ١٢ رجب ١٤٣٣ هجرية
دكتور حازم حامد الشاذلى.